سيرة

صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها

عمة النبي ﷺ

تأليف

جميل إبراهيم حبيب

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

سيرة

صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها

عمة النبي صلى الله عليه وسلم

تأليف

جميل إبراهيم حبيب

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٣م - ١٤٢٤هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3646-1
9782745136466 90000>

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«إنّ كون صفية ﵂، إحدى عمّات رسول الله ﷺ ومن المؤمنات برسالته منذ أوائل أيام الدعوة الإسلامية، شرف عظيم لها، وفضيلة مَنَّ الله عليها، إلى ما قامت الدنيا».

المؤلّف

وذكر ابن إسحٰق «أنه لم يُسلِم من عمّاته ﷺ غير صفية».

(ذخائر العقبى في ذكر عمّات النبي ﷺ)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المدخل

تعتبر صفية بنت عبد المطلب من النساء الخالدات في تاريخنا العربي والإسلامي والإنساني وذلك لمبادرتها بنصرة الدعوة الإسلامية وذودها عن المبادىء الجليلة التي احتوتها هذه الرسالة السماوية الكريمة.

وتاريخنا الزاهر يحفل بأسماء عدد من النسوة - وصفية من أبرزهن - ممن كانت لهن مواقف مشهورة حفظتها الأسفار في بطونها.. وأصبحت فيما بعد ذكرىً عطرة نستنبط منها الدلالات الرائعة والمعاني الكريمة.. وكانت صفية تحضر وتشهد مغازي رسول الله ﷺ وتحث المقاتلين على الصبر والثبات والدفاع عن المبدأ. وكانت صفية جريئة وشجاعة، فقد أقدمت على قتل رجل من اليهود ومن ثم تجريده من سلاحه في غزوة الخندق عندما رأت منه الشر والعدوان.. ترجم لها محب الدين الطبري في كتابه ذخائر العقبى أنها: «أسلمت باتفاق، وشهدت الخندق، وقتلت رجلًا من اليهود، وضرب لها النبي ﷺ بسهم، وروت حديثًا واحدًا رواه عنها ابنها الزبير بن العوام ﷺ أمها هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة شقيقة حمزة والمقوم وحجل.. وكانت في الجاهلية تحت الحرث بن حرب بن أمية بن عبد شمس، ثم هلك عنها فخلف عليها العوام بن خويلد، أخو خديجة بنت خويلد زوج النبي ﷺ فولدت له الزبير والسائب وعبد الكعبة وتوفيت بالمدينة في خلافة عمر ﷺ سنة (٢٠) عشرين (هجرية) ولها ثلاث وسبعون (٧٣) سنة، ودفنت بالبقيع بقباء دار المغيرة بن شعبة»[١].. وجدير بنا دراسة سيرتها والاقتداء بها.

---

(١) يراجع ذخائر العقبي لمحب الدين الطبري ص ٢٥١ - ٢٥٢ بتقديم ومراجعة جميل إبراهيم حبيب، كما يراجع أعلام النساء للأستاذ محمد ذهني (باللغة التركية).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقـــدمة

الكتاب يؤرّخ لسيرة شخصية نسائية فاضلة ألا هي السيدة صفية بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ. . وكونها عمة للنبي ﷺ فضيلة من الله عليها. . ولقد اشتهرت صفية في التاريخ أكثر من بقية بنات عبد المطلب الأخريات، وذلك لكونها أسلمت دون غيرهن في بعض الروايات. .

كما برز اسمها في أكثر المواقف الحاسمة. . آمنت بالإسلام منذ أوائل أيام الدعوة المباركة. . وشاركت المسلمين في أوقات العسرة، ولزمت الصبر والإيمان. .

كما شاركت مع النبي والمسلمين محنتهم في محبسهم في شعبة أبي طالب، عندما أصر القريشيون في حصرهم فيها، وعدم التبايع والمناكحة معهم، وقطع الطعام عنهم، ومنعهم من الأسواق. . هاجرت إلى المدينة المنورة، وصحبت الرسول ﷺ في الحروب والغزوات. .

وبرزت في معركة أحد بشهادة كل المؤرخين الأوائل والأواخر. .

وتميزت بالشجاعة والاتزان، وقول الشعر، ورواية الحديث الشريف. . وعمل الخير والعبادة والصلاح. . رثت رسول الله ﷺ، كما رثت من قبل أبيها عبد المطلب بن هاشم سيد مكة وزعيم قريش. . وهي أم الزبير بن العوام، فارس رسول الله ﷺ والشخصية اللامعة في فتح مصر العربية، وأحد العشرة المبشرة بالجنة. .

وكان النبي ﷺ وصحابته الكِرام يبرّونها ويحترمونها غاية الاحترام. . وكانت لها منزلتها الجليلة بين سائر المسلمين. .

وكانت مؤمنة، عابدة، مجاهدة، صابرة، وهي بحق من النماذج النسائية التي يمكن تسميتها بالامرأة القدوة.. وذلك لما ورد عنها من فضائل طيبة ومواقف جليلة، وبناء على هذا القول فهي جديرة بالاستحضار في بناء مستقبلنا العربي الزاهر، والوقت ما أحوجه إلى بروز نساء ماجدات تقتدي بسيرة خديجة وفاطمة وعائشة وصفية وخولة وغيرهن من الفاضلات في تاريخ العرب...

هذا ومن الله التوفيق

جميل إبراهيم حبيب

تمهيـــد

- صفية بنت عبد المطلب ﵂.
- عمة محمد ﷺ.
- وأخت حمزة والعباس ﵄.
- وأم الزبير بن العوام ﵁.
- باللسان شاعرة.
- وبالرمح كاسرة.
- وبالقلب مؤمنة:
- شديدة الإيمان.. [1].
- وكانت من السابقات المؤمنات ـ من القريشيات ـ بالدعوة الإسلامية.

(١) مجلة العربي ص ٥٤ ـ ٥٥ ضمن مقالة بعنوان (مسلمات خالدات) بقلم السيدة سنية قراعة، العدد ٧٨ مايو ١٩٦٥ م.

صفية بنت عبد المطلب

اسمها ونسبها

إن نسب صفية بنت عبد المطلب من أشرف الأنساب وأفخرها بين الأعراب، وهذا هو المتفق عليه بين جميع المؤرخين وكتاب الأنساب، ولا خلاف بينهم في ذلك[1] والروايات كلها تؤكد على سمو شرف نسبها وحسبها بلا اضطراب من جهة أبيها وأمها..

وهو ـ أي نسبها ـ إلى عدنان، النسب المتفق عليه، فلا خلاف فيه ـ كما أشرنا بين علماء الأنساب ـ وأما من عدنان إلى آدم، فقد اختلف فيه اختلافًا كثيرًا[2]..

وسنذكر بعد حين نسب صفية إلى عدنان ومنه إلى آدم متصلًا فنقول:

هي صفية بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أود بن مقوم بن ناخور بن

---

(١) يراجع كتب الأنساب الرئيسة.. كذلك يراجع ص (٧) من كتاب: (أخبار عبد الله بن عبد المطلب والد الرسول الله ﷺ) تأليف جميل إبراهيم حبيب ١٩٨٤ م، الطبعة الأولى - بيروت ـ منشورات المكتبة العالمية.. وكتاب (الحمزة سيد الشهداء) تأليف جميل إبراهيم حبيب (للتأكيد على نسب صفية بنت عبد المطلب)... طبعة بيروت ١٩٨٦ م نشر الدار العربية للموسوعات.. الطبعة الأولى..

(٢) راجع (غاية السول في سيرة الرسول ﷺ) تأليف الشيخ عبد الباسط الحنفي، طبعة الآستانة سنة ١٣٢٨ هجرية.. كذلك يراجع بالتفصيل كتاب «نسب قريش» للمصعب الزبيري (حول نسب عدنان)، الجزء الأول منه، ص ٣ وما بعدها، طبعة دار المعارف بمصر، ط ٢، سنة ١٩٧٦ م.

شاروح بن أرغو بن فالح بن نمير بن شالح بن أرنخشد[1] بن سام بن نوح بن لامك بن متوشلح بن أخنوخ بن برد بن مهلبل بن قتن بن يانش بن شيت بن آدم عليه السلام[2].

إن في هذه الأسماء المذكورة ما شهر بما ذكرناه، وهو في الحقيقة لقب، والاسم غيره، ولربما اشتهر اللقب دون الاسم، أو بالعكس، فبالنسبة لوالد صفية الذي هو عبد المطلب، اسمه: شيبة، وهاشم اسمه: عمرو.. وعبد مناف، اسمه: المغيرة.. وقصي اسمه: زيد، ويسمى جمعًا أيضًا.. ومدركة، اسمه: عامر.. والياس اسمه: حسين.. وآزر أبو إبراهيم اسمه: تارخ، وشالخ[3]، يقال إنه نبي الله هود عليه السلام[4]، وأخنوخ هو إدريس عليه السلام وهو أول من خط بالقلم، وقد قال رسول الله ﷺ: **«لا تجاوزوا بيّ معد بن عدنان، كذب النسّابون»**، ففيه دليل على أن النسب إلى عدنان هو المتفق عليه، وما عداه يعتوره الشك، ويلفه الغموض، كما يُفهم، من وارد الحلقات البعيدة من تسلسل نسب الآباء وما فيها من اضطراب..

وحاصل نسب السيدة صفية ﷺ أنه يرجع إلى عدنان بسلسلة ثابتة، وصريحة.. ومن عدنان إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. ولكن سلسلة النسب بعد عدنان غير ثابتة، وذلك لتقادم العهد، ولربما كان لانعدام وسائل التدوين في حينه، أو كان النسيان، هما السبب لهذا الاضطراب أو التشوش الذي يحوم حول ثبوت حقيقة شجرة عدنان إلى آدم..

وقد علّق على ذلك المؤرخ الفقيه العلامة محب الدين الطبري بقوله: ... «إلى هنا متفق عليه، وما بعده مختلف فيه، إلا أنهم اتفقوا على أن النسب يرجع

---

(١) في بعض المصادر «أرفحشد» والصحيح ما ثبتناه على ضوء كتب التاريخ والأنساب الأساسية.. راجع ص ٣ من كتاب «تاريخ العرب قبل الإسلام» تأليف عبد الملك بن قريب الأصمعي ط ١، بغداد، مطبعة المعارف سنة ١٩٥٩ ميلادية.

(٢) يقول المسعودي في كتاب (الإشراف والتنبيه) ص ١٩٥ عن نسب الرسول ﷺ وحول حقيقة انتسابه إلى عدنان... [... وإنما لم نتجاوز نسبه ﷺ معدًا، لنهيه عن ذلك بقوله: «كذب النسابون»]... انتهى كلام المؤرخ المسعودي.. وقد استشهدنا بكلام المسعودي هنا للتأكيد على صحة تسلسل نسب السيدة صفية بنت عبد المطلب ﷺ.

(٣) في بعض المصادر: سالخ.. والصحيح: شالخ، ومعناه الرسول أو الوكيل.

(٤) وهود: [هو أول نبي مرسل بعد نوح عليه السلام..] يراجع ص ٣ من كتاب «تاريخ العرب قبل الإسلام»..

إلى إسماعيل بن إبراهيم خليل الله ﷺ»[1] ويلاحظ هنا أن صفية بنت عبد المطلب هي عمة النبي ﷺ، إذ تجتمع معه في أبيها عبد المطلب جدّ رسول الله ﷺ وهي فضيلة لا يشاركها فيها أحد إلا أولاد عبد المطلب من البنين والبنات.. فقط دون سواهم من باقي الناس.

معنى صفية في اللغة

أطلق العرب على أولادهم أسماء كثيرة وعديدة تعبر عن معاني نبيلة ذات مثل عليا في الحياة...

أما ما يخص بموضوع اسم (صفية) في اللغة العربية فهو كما ورد في مختار الصحاح في مادة (ـ ص .ف .ا ـ) مثال:

«ص ف ا ـ (الصّفاء) ممدود ضدّ الكدر. وقد (صفا) الشراب يصفو (صفاءً) و(صفّاه) غيره (تصفية). و(صفوة) الشيء: خالصه.. يقال محمد ﷺ صفوةُ الله من خلقه ومصطفاه...»[2].

والصفاء موضع بمكة.. والمصفاة: الراووق.. والصفيّ: (المصافي). و(الصفيّ): ما يصطفيه الرئيس من المغنم لنفسه قبل القسمة وهو (الصفيّة): أيضًا والجمع (صفايا) (وأصفاه الود): أخلص له.. و(صافاه) و(تصافيا)، تخالصا.. و(اصطفاه): اختاره..

ويظهر أنَّ عبد المطلب سماها بهذا الاسم، لسبب واحد، ينحصر في رجائه من الله أن يصفيّ قلب هذه البنت من الشرك، وأن تكون من المخلصات لدين الحنيفية، دين الإيمان والتوحيد، دين النبي إبراهيم عليه السلام.. فهي إذًا صافية القلب، من آثار الشرك، وصافية أو نقية الصدر من وساوس الشيطان.. وخالصة لله تعالى، إلـه الأحناف الموحدين المُقربّين بربوبيته كما ورد على لسان النبي إبراهيم عليه السلام، المؤسس الأول للديانة الحنيفية والمبشّر بتعاليمها، وكان عبد المطلب على هذه الديانة. وهي دين الفطرة، دين التوحيد، والدين الحق..

---

(١) راجع ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى لمحب الدين الطبري بتحقيق جميل إبراهيم حبيب، ص ٥٥، كذلك راجع غاية السول في سيرة الرسول لعبد الباسط الحنفي ص ١٠٣.

(٢) راجع ص ٣٦٦ (مختار الصحاح) محمد بن أبي بكر الرازي، بيروت ١٩٨١.

وكان لتسمية عبد المطلب ابنته بهذا الاسم دليل على اعتزاز عبد المطلب بمبادىء هذا الدين، وانعكاس لما يؤمن به، وتطبيق لتعاليمه، حتى في حالة إطلاق الأسماء على أولاده.. والله أعلم.. ولعل في استجابة صفية للإسلام فيما بعد هو تحقيق لأمنيات عبد المطلب من الله تعالى على المستقبل الأرحب..

ومن المناسب أيضًا أن أنقل ما ورد في كتاب معجم البلدان عن اسم صفية ودلالته على بعض المواقع أو المواضع أو غيرها مما يجعلنا نثبت أن لفظة صفية غزيرة المعنىٰ في لغة العرب وشائعة الاستعمال أيضًا، فيقول الحموي:

صُفَيّة: بضم أوله، وفتح ثانيه، والياء مشددة، بلفظ تصغير صافية مرخمًا: ماء لبني أسد عندها هضبة يقال لها هضبة صُفَيّة، وحزيز يقال له حزيز صفية، قال ذلك الأصمعي، وقال أبو ذؤيب:

أمن آل ليلىٰ بالضجوع وأهلنا ينعق اللوىٰ أو بالصفية عيرُ

قال الأخفش: الضجوع موضع، والنعق ما ارتفع من سيل الوادي وانخفض الجبل، يقول: أمن آل ليلىٰ عِيرٌ مرت بهذا الموضع، قال أبو زياد: وصُفَيّة ماء للضباب بالحمىٰ حمى ضرية، وقال أيضًا: صُفَيّة ماء لغَنيّ، قال الأصمعي: ومن مياه بني جعفر الصُّفيّة. وصفي السَّباب: موضع بمكة، وقد ذكر في السباب، قال فيه كثير بن كثير السهمي:

كم بذاك المجون من حيّ صدقٍ من كهول أعفة وشباب
سكنوا الجزع جزع بين أبي مو سىٰ إلى النخل من صُفِيّ السباب
فلي الويل بعدهم وعليهم صرت فردًا وملّني أصحابي

قال الزبير: بيت أبي موسىٰ الأشعري وصفي السباب ما بين دار سعيد الحرشي التي بناها إلى بيوت أبي القاسم بن عبد الواحد التي بأصلها المسجد الذي صُلّي على أمير المؤمنين المنصور عنده، وكان به نخل وحائط لمعاوية فذهب ويعرف بحائط خرمان..

والصُفيّين: تثنية الصُّفي الذي قبله: موضع في شعر الأعشىٰ:

كَسَوْنَ قتود العيس رحلًا تخالها مهاة بدكداك الصفين فواقدا[1]

---

(١) راجع (معجم البلدان) ياقوت الحموي، المجلد الثالث ص ٤١٤ ـ ٤١٥ نشر وتوزيع دار إحياء=

والدُ صفية

لا بد من النظر إلى صفحات التاريخ قبل الولوج في الكلام عن شخصية صفية بنت عبد المطلب والترجمة عنها، وذلك لتقديم صورة تاريخية عامة عنها تساعدنا فيما بالوقوف والاطلاع على المكونات الأولية لأصالة ميراث هذه الشخصية النسائية اللامعة في تاريخ العرب والإسلام والإنسانية.. وخلفيتها العريضة والخصبة بالأمجاد والمفاخر والفضائل والخصال الحميدة والآثار الجليلة..

وخيوط القصة تنطلق من هاشم (عمرو العلا) وما تركه من مناقب خالدة في ألواح التاريخ، تلك الآثار التي تأصلت فيما بعد في ذرية بني هاشم، والتي كانت صفية، أحد أعلامهم الخالدين.. وهاشم هذا جدّ صفية، المترجم عنها في كتابنا.. كان عمرو العلا بن عبد مناف سيد مكة(١) رجلًا ضخم الجسم، عظيم الهيئة، واسع الثراء، كريم النفس، وصادفت أن أصابت قريش سنوات شداد ذهبن بالأموال، وأحاطت بها مجاعة كبرى استيأس الناس فيها من روح الله(٢) وأخذوا يأملون كل يوم أن يفرج الله عنهم، ولكن المجاعة أخذت تشتد بهم يومًا بعد يوم وتضيق حلقاتها ساعة بعد ساعة..

ولما رأى عمرو أن المجاعة قد ارتفعت إلى الدرجات المزعجة، وأن أهل مكة قد ضاقت بهم سبل الحياة وبلغت الروح منهم الحلقوم، أعدّ عمرو عدّته ثم انطلق إلى الشام فأمر بخبز كبير فخبز له.. ثم وضعه في الغرائر وحمله على الإبل، وقفل راجعًا إلى مكة.. ثم هشّم الخبز وقطعه على الثريد وذبح آلاف الإبل وأمر الطهاة فطبخوا.. ثم نادى أهل مكة جميعًا فأطعمهم وأشبعهم، وظل كذلك حتى انقشعت المجاعة، وعاد الناس سيرتهم الأولى، وسمى الناس عمرو العلا بعد ذلك باسم «هاشم».. لأنه هشم الثريد لقوله وفي ذلك يقول الشاعر:

تحمل هاشم ما ضاق عنه ... وأعيا أن يقوم به ابن بيض

= التراث العربي، بيروت، لبنان.

(١) انظر ص ٨ وما بعدها من كتاب (العباس) صابر إبراهيم عبده، بغداد، دار النذير للطباعة والنشر، الطبع بلا تاريخ. وعن أمجاد هاشم في التاريخ، راجع كتاب (القول الجازم في نسب بني هاشم) تأليف جميل إبراهيم حبيب بغداد ١٩٨٧ م، الطبعة الأولى.

(٢) روح الله: رحمته الواسعة... وفي المختار [والرّوح والريحان: الرحمة والرزق] ص ٢٦٢، تحت مادة (روح).

أتـاهـم بـالـغـرائـز مـتـأفـات — مِنَ أَرْضِ الشام بالبر النفيض
فـأوسـع أهـل مكـة مـن هـشـيـم — وشاب الخبز باللحم الغريض

وكان هاشم بن عبد مناف [وهو جد صفية لأبيها] تاجرًا من أكابر تجار قريش... وكان يبذل ماله للفقراء والمحتاجين، ويقيم الموائد للناس في كل الأوقات... وكان يؤمن بمشاركة الفقراء في أموال الأغنياء ضمن حقوق اجتماعية قائمة على القسط والعدل، وبذلك يعتبر رائد الاشتراكية العربية التي يمكن أن نسميها بالاشتراكية الهاشمية... وقد جاء الإسلام والاشتراكية الهاشمية كانت قائمة في قريش.. فقد جاء في «الدر المنثور» للسيوطي(١):

أخرج الزبير بن بكار في «الموفقيات» عن عمر بن عبد العزيز: قال: كانت قريش في الجاهلية تحتفد، وكان احتفادها أن أهل البيت منهم كانوا إذا سافت - يعني هلكت - أموالهم (أي ماشيتهم).. خرجوا إلى برار من الأرض فضربوا على أنفسهم الأخبية ثم تناوبوا حتى يموتوا من قبل أن يعلم بخلتهم، حتى نشأ هاشم بن عبد مناف، فلما نبل وعظم قدره في قومه قال: يا معشر قريش إن العز مع الكثرة، وقد أصبحتم أكثر العرب أموالًا وأعزهم نفرًا وإن هذا الاحتفاد قد أتى على كثير منكم، وقد رأيت رأيًا.. قالوا: رأيك راشد فمرنا نأتمر، قال: رأيت أن أخلط فقراءكم بأغنيائكم فأعمد إلى رجل غني فأضم إليه فقيرًا، عياله بعدد عياله، فيكون يؤازره في الرحلتين، رحلة الصيف إلى الشام، ورحلة الشتاء إلى اليمن، فما كان في مال الغني من فضل عاش الفقير وعياله في ظله، وكان ذلك قطعًا للاحتفاد، قالوا: نعم ما رأيت، فألف بين الناس..

ويزيدنا القرطبي بيانًا(٢) فيقول:

«ذكر أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا في تفسيره: حدثنا سعيد بن محمد عن بكر عن سهل الدمياطي بإسناده إلى ابن عباس في قول الله عز وجل: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ [قُرَيش: الآية ١](٣)، ألفهم رحلة الشتاء والصيف.. وذلك أن قريشًا كانوا إذا أصابت واحدًا منهم مخمصة جرى هو وعياله إلى موضع معروف، فضربوا على أنفسهم خباء، فماتوا.. حتى كان عمرو بن مناف وكان

---

(١) جـ ٦ ص ٣٩٧. المطبعة الميمنية.
(٢) راجع تفسير الطبري جـ ٢٠ ص ٢٠٤.
(٣) راجع القرآن الكريم، سورة الإيلاف.

سيدًا في زمانه، وله ابن يقال له: أسد، وكان له ترب من بني مخزوم يحبه ويلعب معه، فقال له: نحن غدًا نعتفر.. قال ابن فارس: هذه لفظة في هذا الخبر لا أدري بالدال هي أم بالراء.. فإن كانت بالراء فلعلها من العفر وهو التراب.. وإن كانت بالدال فما أدري معناها..

وتأويله على ما أظنه: ذهابهم إلى ذلك الخباء وموتهم واحدًا بعد واحد..

قال: فدخل أسد على أمه يبكي وذكر ما قال تربه: قال: فأرسلت أم أسد إلى أولئك بشحم ودقيق فعاشوا به أيامًا.. ثم أن تربه أتاه أيضًا فقال: نحن غدًا نعتفر، فدخل أسد على أبيه يبكي وخبره خبر تربه، فاشتد ذلك على عمرو بن مناف فأقام خطيبًا في قريش، وكانوا يطيعون أمره، فقال: إنكم أحدثتم حدثًا تقلون فيه وتكثر العرب، وتذلون وتعز العرب، وأنتم أهل حرم الله جل وعز، وأشرف ولد آدم، والناس لكم تبع.. قال: ابدءوا بهذا الرجل - يعني أبا ترب أسد - فاغنوه عن الاعتفار.. ففعلوا.. ثم إنه نحر البدن وذبح الكباش والمعز، ثم هشم الثريد وأطعم الناس فسمي هاشمًا، وفيه قال الشاعر:

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

ثم جمع كل بني أب على رحلتين.. في الشتاء إلى اليمن.. وفي الصيف للتجارات، فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير حتى صار فقيرهم كغنيهم.. فجاء الإسلام وهم على هذا، فلم يكن في العرب بنو أبٍ أكثر مالًا ولا أعزّ من قريش وهو قول شاعرهم:

والخالطون فقيرهم بغنيهم حتى يصير فقيرهم كالكافي

فلم يزالوا كذلك حتى بعث الله رسوله محمدًا ﷺ فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ [قريش: الآيتان ٣، ٤] بصنيع هاشم، ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: الآية ٤] أن تكثر العرب ويقلوا. ثم أن هناك تصحيفًا في أول كلام هاشم، إذ جاء في «بلوغ الأرب» للألوسي على نحو مختلف[1] «إنكم أجدبتم جدبًا تقلون فيه وتذلون».. وأغلب الظن هو الأصح...

(١) «بلوغ الأرب» ج ٣ ص ٣٨٦، المطبعة الرحمانية، مصر، ١٩٢٥ م.

ويمكننا أن نقرر بأن هاشم كان يعتبر منشىء أول اشتراكية في التاريخ.. والقائمة على (العدالة الاجتماعية).. وكان هاشم كما قلنا هو من أكابر تجار قريش، فخرج يومًا في عيرٍ لقريش فيها تجارات، وكان طريقهم على المدينة، فصادفوا سوقًا تقام به مرة واحدة كل عام يحشد الناس بها كل شيء، فباعوا واشتروا، ولفت نظر هاشم امرأة واقفة على موضع مشرف في السوق، تأمر بما يباع ويشترى لها.. فأعجب بها هاشم.. فسأل عنها: أأيم هي أم ذات زوج؟

فقيل له: إنها أيم كانت تحت أحيحة بن الجلاح ثم فارقها.. وكانت لا تنكح الرجال لشرفها في قومها.. حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها.. فإذا كرهت رجلًا فارقته..

وخطبها هاشم إلى نفسه فرضيت حتى علمت مكانته وشرفه وحملت «سلمى» من زوجها هاشم.. وبعد عام وضعت له طفلًا صغيرًا، وكان برأسه شعراء بيضاء فسمته: «شيبة» الذي سمي فيما بعد بعبد المطلب والد صفية.. ومرض هاشم بعد أيام.. وأحس بسكرات الموت تقترب منه، فأوصى أن يكون أمره لابن أخيه المطلب.. ومات هاشم، فحملت زوجه ابنها شيبة، وعادت به إلى أهلها المدينة.. ومرّت الأيام، تلو الأيام، وذات يوم، قدم مكة ثابت بن المنذر بن حرام.. فلقي المطلب، وكان له خليلًا، فقال له: لو رأيت ابن أخيك شيبة فينا لرأيت جمالًا وهيبة وشرفًا.. لقد نظرت إليه وهو يناضل فتيانًا من أخواله فإذا انتصر عليهم قال: أنا ابن عمرو العلا..

فقال المطلب ـ وهو يجيبه ـ: لا أمسي حتى أخرج إليه فأقدم به.. فما كنت لأدعه هناك ويترك مآثر قومه، ونسبه وشرفه في قومه ما قد علمت..

وانطلق المطلب إلى المدينة، فنزل بدار أمه ورجاها أن يأخذ ابن أخيه هاشم ليكون في قوم أبيه ويتولى مكانته ومنزلته حتى يقوى ويشتد ساعده..

وحمل المطلب ابن أخيه هاشم: «شيبة» على بعير وأردفه خلفه فلما دخل به مكة... ورأى أهلها المطلب وخلفه غلام صغير، ظنوه عبدًا جاء به، فتصايحوا: قد جاء المطلب بعبد... هذا عبد المطلب.. فقال لهم: ويحكم، إنما هو ابن أخي شيبة، ولكن اسم عبد المطلب (والد صفية)، غلب على اسم شيبة فعُرف بعد

ذلك باسم: عبد المطلب وبصورة ثابتة.. أما الاسم الحقيقي فمذكور في كل كتب التاريخ والأنساب[1]..

وأخذ عبد المطلب يعيش مع عمه وأبناء عمومته وأقرباءه وعشيرته في مكة.. ونما زرع عبد المطلب وترعرع، وقويت على مرور الأيام شوكته، حتى أصبح رجلًا مكتمل الرجولة، ولما مات المطلب تولى عبد المطلب بعده أمور مكة، فأصبح سيّد مكة وزعيمها، وكان من أحسن الناس وجهًا، وأمدها جسمًا وأجودها كفًّا[2]...

وتزوج عبد المطلب عدة نساء منهن أم صفية المعروفة بمكانتها وشرفها..

وصفية بنت عبد المطلب أصبحت فيما بعد عمة رسول الله ﷺ وهي فضيلة من الله عليها، ومفخرة عظمى لها تضاف إلى مآثرها وخصائصها الجيدة والعديدة...

أُم صفية

واسم أمها: هالة بنت وُهيب بن عبد مناف بن زهرة[3].

وفي كتاب نسب قريش هي: «هالة بنت أُهيب بن مناف بن زهرة»[4].

وزهرة: هو ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر[5].

ويجتمع نسبها مع الرسول ﷺ من جهة أمها هالة بنت وهيب في عبد مناف بن زهرة.

كما ويجتمع نسب أبيها عبد المطلب مع نسب أمها هالة في كلاب بن مرة.

وقد جاء تحت ذكر تزويج آمنة بعبد الله بن عبد المطلب ما يفيدنا معرفته عن هالة بنت أهيب أو وهيب أم صفية بنت عبد المطلب، إذ ذكر لنا محب الدين الطبري ما نصه:

---

(١) وفي رواية اسمه: عامر كما في ص ٧١ من سبائك الذهب.. والظاهر أنها رواية غير مشهورة.
(٢) عن المصدر السابق، بتصرف. (٣) ذخائر العقبى ص ٢٥٢.
(٤) نسب قريش ج ١ ص ١٧، كذلك اليعقوبي ج ١ ص ٢٥١.
(٥) نسب قريش، ج ١ ص ١٣.

«قال أبو عمر: خرج به (يعني عبد الله) أبوه عبد المطلب إلى وهب بن عبد مناف، فزوجه آمنة ابنة وهب، وقيل كانت آمنة في حجر عمها وهيب بن عبد مناف، فأتاه عبد المطلب، فخطب إليه هالة بنت وهيب لنفسه، وخطب آمنة بنت أخيه وهب لابنه عبد الله، فتزوجاهما في مجلس واحد، فولدت آمنة لعبد الله رسول الله ﷺ، وولدت هالة لعبد المطلب حمزة وصفية»[1].

وفي صدد ذكر أولاد عبد المطلب بن هاشم يقول المصعب الزبيري في كتابه نسب قريش عن أولاد عبد المطلب من جهة هالة بنت وهيب فأشار:

«... وحمزة بن عبد المطلب، والمقوم، وحجل، واسمه المغيرة.. وأمهم: هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة...»[2].

ووَهب هو جد رسول الله ﷺ، أبو أمه، أم رسول الله ﷺ، آمنة بنت وهب بن عبد مناف..

ولوَهْب بن عبد مناف يقول الشاعر:

يا وهب يا بن الماجدين زُهره
سدت كلابًا كلها ابن مرّه
بحسبٍ زاكٍ وأمٍ حرّه[3]

وأهيب أخو وهب هو جد صفية لأمها هالة، أي أبو أمها..

فأُم رسول الله ﷺ آمنة وهب، وأم صفية هالة بنت وهيب، ابنتا عم، جدّهما، عبد مناف بن زهرة..

وقد اجتمع في صفية لنسبها من جهة أبويها من المجد العائلي ما لم يجتمع لأحد، فهي تنتمي إلى قريش التي توارثت الشرف والفخار والسيادة الدينية على سائر قبائل العرب منذ تأسيس مكة، علمًا بأن الرئاسة الدينية في قريش كانت في بطن هاشم وهذا البطن هو الذي انحدرت منه صفية بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ، حيث يعتبر هاشم جدها من جهة أبيها..

---

(١) ذخائر العقبى، ص ٢٥٨.
(٢) نسب قريش ج ١ ص ١٧.
(٣) نسب قريش ج ٨ ص ٢٦١.

خبر زواج عبد المطلب من أُم صفية

ورد في أخبار أبي القاسم الزجاجي:

أخبرنا اليزيدي، قال أخبرني سليم بن عبد العزيز بن أبي نائب من ولد عبد الرحمٰن بن عوف عن أبيه عن عبد الله بن جعفر يرفعه عن ابن عباس عن أبيه العباس بن عبد المطلب قال: خرج عبد المطلب إلى اليمن في رحلة الشتاء فلقيه رجل من أهل الزبور فنسبه فانتسب له فقال: أتأمرني أن أنظر إلى شيء منك؟ قال: نعم ما لم تكن عورتي.. فجعل يقلب وترة أنفه ويقول: إني لأرى سحرًا فيه نور النبوة ولكنا لا نجد الأمر يكون إلا في بني زهرة فهل لك من شاعة؟ قال: وما الشاعة؟ قال: الزوجة. قال: أما اليوم فلا. قال: فارجع فتزوج في بني زهرة.. فرجع فتزوج هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة، وزوّج عبد الله ابنه آمنة ابنة وهب بن عبد مناف بن زهرة فقالت قريش: فلح عبد الله على أبيه عبد المطلب..

فولدت له هالة: حمزة والمقدّم، وصفية بني عبد المطلب.

وولدت آمنة لعبد الله: محمدًا ﷺ[1].

ولادة صفية وسنة وفاتها

ولدت صفية ﵂ في مكة في سنة (٥٣) ثلاث وخمسين قبل الهجرة، وتوفيت سنة (٢٠) عشرون للهجرة، بالمدينة في خلافة عمر بن الخطاب ﵁ عن (٧٣) ثلاث وسبعين سنة [وصلى عليها عمر].. ودفنت بالبقيع بفناء دار المغيرة بن شعبة[2]. وفي رواية أنها توفيت في خلافة عثمان بن عفان ﵁، والعلم عند الله إلا أن الرواية الأولى أصح على ما هو مشهور. ودفنت بالبقيع وقبرها معروف. وفي زيارة قبرها فضيلة.

---

(١) راجع ص ١٢٥ من كتاب (أخبار أبي القاسم الزجاجي) بغداد، إصدار وزارة الإعلام، دار الرشيد للنشر ١٩٨٠ م.

(٢) يراجع ذخائر العقبى ص ٢٥٢ لمحب الدين الطبري، ويراجع كتاب «الحمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء» تأليف جميل إبراهيم حبيب ـ بيروت ١٩٨٦ ـ الطبعة الأولى، إصدار الدار العربية للموسوعات.

نشأة صفية

نشأت صفية في مكة المكرمة، في أقدس مدينة في تاريخ العرب، وتربت في بيت أبيها عبد المطلب سيد قريش بلا منازع، والذي يعتبر من أنبل بيوتات قريش وأعرقها في العزّ والشرف والسعادة.

وقد امتاز رجال ونساء هذا البيت على السواء بمناقب وفضائل مشهورة أهمها: الشجاعة، والحكمة، والفصاحة، والسماحة، والحلم، والعلم، والتواضع، والكرم، وقضاء الحوائج، وصفات وفضائل أخرى غيرها، يستنبطها القارىء أثناء دراسته لتراجمهم وسيرهم الشخصية في كتب التاريخ والأخبار والأدب والأنساب، وقد تطرقت الكاتبة السيدة سنية قراعة إلى مولد ونشأة صفية في مجلة العربي[١] فذكرت:

«وفي هاتيك الأيام البعيدة من أيام الجاهلية... وفي أعلى بيوت مكة ذرى، وأكرمها محتدًا، ولدته صفية بنت عبد المطلب بن هاشم، سيّد مكة، وصاحب سقاية الحجيج فيها، ومقدّم العشيرة، وسيّد السادات، فدرجت المولودة السعيدة في مدارج العز، ونشأت على خلق الكرام البهاليل من أهليها، فكانت كريمة، جوادة، لَسِنة فصيحةٌ، تروي الشعر وتقرضه، وكان لها فيه باع طويل[١]..

ولم تكد صفية تشب عن الطوق، حتى خطبها في الجاهلية الحارث بن حرب أحد أبناء عمومتها وأخو أبو سفيان بن حرب، من سادات قريش.. وعاشت في كنفه ما شاء لها الله أن تعيش، حتى تزوجها من بعده سيّد آخر هو العوام بن خويلد...»[٢] أخو السيدة خديجة بنت خويلد...

منزلة عائلة صفية في قريش

نزجّ بيان ذكر هذه العائلة التي يتزعمها عبد المطلب سيد العرب وزعيم قريش، وذلك لارتباط منزلة هذه الشخصية، ببقية أفراد العائلة من رجال ونساء بما فيهم صفية بنت عبد المطلب فاعتراف قريش لعبد المطلب بالمنزلة العليا، والمكانة المعتبرة، هو إقرار في نفس الوقت لعلو منزلة أبنائه وبناته في نظرهم وقتئذٍ.

---

(١) للأسف الشديد لم يردنا من قصائد صفية بنت المطلب ﷺ إلا النذر اليسير في المصادر وهي قليلة ومتفرقة... (المؤلف).

(٢) ص ٥٤ مجلة العربي (مسلمات خالدات) بقلم سنية قراعة.

نشأت صفية كما ذكرنا في أرفع بيوتات قريش، فهي ابنة سيد بطحاء مكة، وزعيم قريش، وقد أكسب الزمان تاريخ عائلتها بصفات وخصال لم تتوفر لغيرها كالجاه والسيادة ووجاهة الحسب والنسب وكمال الخصائل.. إضافة إلى سمو مكانتها الاجتماعية والدينية، وذلك لتشرفها بالإشراف على المسؤولية الدينية التي كانت تخص العرب جميعًا وهو إدارة شؤون مكة، وتزعم ما يترتب على تنظيم أمور الحج والسقاية والمراسيم والشعائر الدينية آنذاك.

وكانت نظرة قريش إلى زعيم هذه العائلة عبد المطلب بن هاشم قائمة على الاعتراف له بالفضل والسيادة.

وكانت صفية بلا شك تعتز وتفتخر بأبيها عبد المطلب الذي تولى زعامة قريش وسيادة مكة الدينية.. والحديث التالي يثبت أفضلية عبد المطلب وبنيه، فقد ورد في كتاب (ذخائر العقبى) تحت موضوع (ذكر اصطفائهم)، وشمائل هذا الحديث الشريف تحوي أيضًا على سهم صفية من عدة أطراف فقال:

«عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد آدم إبراهيم، واتخذه خليلًا، واصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، ثم اصطفى من ولد إسماعيل، نزار، ثم اصطفى من ولد نزار مضر، ثم اصطفى من ولد مضر، كنانة، ثم اصطفى من كنانة: قريشًا... ثم اصطفى من قريش بني هاشم.. ثم اصطفى من بني هاشم بني عبد المطلب.. ثم اصطفاني (والإشارة إلى الرسول ﷺ) من بني عبد المطلب».

وأخرجه مسلم والترمذي وأبو حاتم مختصرًا، ولفظه «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى هاشمًا من قريش، واصطفاني من بني هاشم»[١].

وفي موضوع (ذكر أفضليتهم) عن عائشة ﵂ قالت:

قال رسول الله ﷺ:

«قال جبريل عليه السلام: قلبت الأرض، مشارقها ومغاربها فلم أجد بني أب أفضل من بني هاشم» أخرجه أحمد في المناقب[٢].

---

(١) ذخائر العقبى ص ١٠.

(٢) ذخائر العقبى ص ١٤.

«وكان المطلب بن عبد مناف قد قام بأمر مكة بعد أخيه هاشم»[١].

يقول: سيديو في خلاصة تاريخ العرب عن عبد المطلب:

«مارس الحكومة العظمى بمكة من سنة ٥٢٠ إلى ٥٧٩ م وخلص وطنه من غارة الحبشة»[٢]، ويقول اليعقوبي حول انتقال السيادة إلى عبد المطلب: «ولما حضر رحيل المطلب إلى اليمن قال لعبد المطلب: أنت يا بن أخي أولى بموضع أبيك، فقم بأمر مكة، فقام مقام المطلب، فتوفي المطلب في سفره ذلك بردمان، فقام المطلب بأمر مكة، وشرف وساد، وأطعم الطعام، وسقى اللبن والعسل، حتى علا اسمه، وظهر فضله، وأقرّت له قريش بالشرف فلم يزل كذلك»[٣].

وبهذا تكامل المجد لعبد المطلب من جميع أطرافه «وأقرّت له قريش بالفضل»[٤] بعد إقرارها له بالشرف كما نوّهنا سابقًا.

وبعد.. فهذه منزلة عبد المطلب والد صفية، صاحبة الدراسة، وهو عميد أسرتها، وقد نالت المجد والشرف والذكر من تحت جناح وشهرة عميد هذه الأسرة الشريفة، وزعيم مكة وقريش بلا منافس..

هذا وإن في ذكر منزلة والدها عبد المطلب وعميد أسرتها في دراسة شخصيتها، هنا، زيادة، في متانة بيان منزلتها من جهة، ومن جهة أخرى تعزيز على رونق تكامل وتسلسل المواضيع وتتابع خطواتها، ولهذا السبب الضروري لم نغفل عن هذه النقطة..

إخوة صفية
أولاد عبد المطلب

لا يجوز لنا أن نؤرخ لشخصية السيدة صفية، دون أن نعرف عن عدد إخوتها، وهم أولاد عبد المطلب، وذلك لمعرفة موقعها فيهم، باعتبارهم جميعًا مستظلين ومرتبطين برابطة الأبوة من هذه الشخصية الفذة - أي عبد المطلب - في تاريخ العرب عامة وتاريخ مكة وقريش خاصة.

---

(١) تاريخ اليعقوبي، ج ١ ص ٢٤٥.

(٢) هامش الصفحة ٥٦ عن كتاب المدائح النبوية للسيد هاشم الخطيب كذلك راجع كتاب (الحمزة بن عبد المطلب) عن هذا الموضوع.

(٣) تاريخ اليعقوبي، ج ١ ص ٢٤٦.

(٤) تاريخ اليعقوبي، ج ١ ص ٢٤٦ كذلك.

ولأن جميع أولاد عبد المطلب كان لهم من الفضل والمجد ما ليس لغيرهم من أبناء قريش كما تشيد الكتب التاريخية بذلك.

ومما يؤيد كلامنا في هذا الصدد، المؤرخ اليعقوبي فيقول: «وكان لكل واحد من ولد عبد المطلب شرف وذكر وفضل وقدر ومجد»[1]. . .

وبطبيعة الحال، كان هذا الشرف مسحوبًا على ـ نسائه أيضًا ـ أقصد بنات عبد المطلب ـ وذلك باعتبارهن أفرادًا ضمن مسؤولية هذه العائلة الشريفة ـ.

وسياق البحث يحتم علينا بدوره أيضًا أن نذكر إخوة صفية، كما ورد في كتب التاريخ والأنساب والتراجم الشخصية للأعلام التاريخية في تراث العرب والمسلمين.. حيث أشار إليهم جميع المؤرخين المشهورين كالطبري واليعقوبي وصاحب العقد الفريد ومن المتأخرين السيوطي... الخ... لكننا سنقتصر فقط على ما جاء في نسب قريش في ذكرهم تجنبًا للتطويل والتكرار ولأن ما جاء في هذا المصدر المذكور يتطابق مع ما جاء في تلك المراجع الرئيسة.. وهو أقدم عهدًا من المؤرخين اللاحقين..

قال المصعب الزبيري تحت موضوع (ولد عبد المطلب): «فولد عبد المطلب بن هاشم: عبد الله، أبا رسول الله ﷺ وأبا طالب، واسمه: عبد مناف، والزبير، وأم حكيم البيضاء، وهي التي يقال لها «الحصان» وهي توأمة أبي رسول الله ﷺ وعاتكة ومرة وأميمة وأروى، أمهم: فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم وأمها: تخمر بنت عبد قصي، وأمها: سلمى بنت عامرة بن عميرة بن وديعة بن الحارث بن فهر، وأمها: فاطمة بنت عبد الله بن الحارث بن مالك بن عدوان، وهم حلفاء في هذيل..

وحمزة بن عبد المطلب، والمقوّم، وحجل، واسمه المغير، وصفية، وأمهم: هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة، وأمها: العبلة بنت المطلب بن عبد مناف بن قصي، وأمها خديجة بنت سُعيد بن سعد بن سهم وأمها: أم الخير بنت سعيد بن سهم وأمها: عاتكة بنت عبد العزى بن قصي، وأمها: ريطة بنت كعب بن سعد بن تيم بن مرة، وأمها: نائلة بنت حذافة، ابن جمح بن عمرو بن هُصيص بن كعب.

---

(١) تاريخ اليعقوبي، ج ٢ ص ١١.

والعباس بن عبد المطلب.. وضرار بن عبد المطلب، أمهما: نُتيلة بنت جناب بن كليب بن مالك بن عمرو بن عامر بن النمر بن قاسط، من بني القرّية.. والقرّية أم بني عمر بن عامر..

والحارث بن عبد المطلب، وهو أكبر ولده، وبه كان يكنى.. وقثم، هلك صغيرًا، وأمهما: صفية بنت جندب بن حجير بن رئاب بن حبيب بن سواءة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوزان وأخوهما لأمهما: الأسود بن حذيفة ابن أقيش بن عامر بن بياضة بن سُبيع بن جعثمة بن سعد بن مليح بن عمرو بن ربيعة من خزاعة، وأبا لهب عبد العزّى، وأمه: لُبنى بنت هاجر بن عبد مناف بن ضاطر بن حبشية بن سلول من خزاعة، وأمها: هند بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، وأمها: السوداء بنت زهرة بن كلاب..

والغيداق بن عبد المطلب، واسمه المصعب، وأمه خزاعية، وأخوه لأمه: عوف بن العوف بن عبد بن الحارث بن زهرة بن كلاب... الخ[1].

إن ذكر أولاد عبد المطلب، مع ذكر أمجاد عبد المطلب، ومكانة كل منهم في قريش تلقي الأضواء وما كان لصفية بفضلهم من موقع اجتماعي متميز في المجتمع القريشي آنذاك باعتبارها إحدى نساء هذه العائلة المرموقة، والمحترمة عندهم وعند العرب.. وهي بذلك ترعرعت وفي فمها ملعقة من ذهب لما توارثها من فخار من قبل أبيها وإخوتها.. ولما أحاطتها من أمجاد ومآثر..

انتقال السيادة إلى إخوة صفية

لقد مر بنا أن عبد المطلب كان قد تكامل له المجد من جميع أطرافه، وقد «أقرت له قريش بالفضل»[2] في ذلك.

وقد ورث أولاد عبد المطلب جوانب السيادة من أبيهم عبد المطلب بعد وفاته..

لقد عاش عبد المطلب ١٢٠ سنة أو أكثر، وقد جاء في تاريخ اليعقوبي عن شرف عبد المطلب (والد صفية) مؤرخًا له:

---

(١) نسب قريش ج ١ ص ١٧ ـ ١٨. راجع كذلك تاريخ اليعقوبي، ج ٢ ص ١١.
(٢) تاريخ اليعقوبي، ج ١ ص ٢٤٦.

«وعبد المطلب يومئذٍ سيد قريش غير مدافع، قد أعطاه الله من الشرف ما لم يعط أحدًا، وسقاه زمزم وذا الهرم، وحكّمته قريش في أموالها، وأطعم في المحل، حتى أطعم الطير والوحوش في الجبال. قال أبو طالب:

ونطعم حتى تأكل الطير فضلنا   إذا جعلت أيدي المفيضين ترعد

ورفض عبادة الأوثان..

ووحّد الله.. عزَّ وجل..

وسنّ سُننًا نزل القرآن ـ الكريم ـ بأكثرها، وجاءت السنة من رسول الله ﷺ بها وهي:

الوفاء بالنذور..

ومائة من الإبل في الديّة..

وألا تنكح ذات محرم..

ولا تؤتى البيوت من ظهورها..

وقطع يد السارق..

والنهي عن قتل المؤودة..

والمباهلة..

وتحريم الخمر..

وتحريم الزنا.. والحدّ عليه..

والقرعة..

وألّا يطوف أحد بالبيت عريانًا..

وإضافة الضيف..

وألا ينفقوا إذا حجوا إلا من طيب أموالهم..

وتعظيم الأشهر الحرم..

ونفي ذوات الرايات..

ولما قدم صاحب الفيل، وخرجت قريش من الحرم، فارّة من أصحاب الفيل، فقال عبد المطلب: والله لا أخرج من حرم الله وأبتغي العزّ في غيره!! فجلس بفناء البيت ثم قال:

لهم أن تعف فإنهم عيالك ... إلا فشيء ما بدا لك

فكانت قريش تقول: عبد المطلب إبراهيم الثاني.. وكان المبشر بما فعل الله بأصحاب الفيل عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله ﷺ فقال عبد المطلب:

قد جاءكم عبد الله بشيرًا ونذيرًا.. فأخبرهم بما نزل بأصحاب الفيل.. فقالوا: «إنك كنت لعظيم البركة، لميمون الطائر منذ كنت»[(١)]، وبعد وفاة عبد المطلب سيّد قريش وعظيمها الذي لا ينافسه أحد، في السيادة والشرف، أوصى إلى بعض أولاده من بعده، ليتولى المسؤوليات التي كان يقوم بها..

يقول اليعقوبي: «وأوصى عبد المطلب إلى ابنه الزبير بالحكومة وأمر الكعبة، وإلى أبي طالب برسول الله ﷺ، وسقاية زمزم، وقال له: قد خلفت في أيديكم الشرف العظيم الذي تطأون به رقاب الناس...

وقال لأبي طالب:

أوصيك يا عبد مناف بعدي بمفرد بعد أبيه فرد
فارقه وهو ضجيع المهد فكنت كالأم له في الوجد
تُدنيه من أحشائها والكبد فأنت من أرجى بنيّ عندي
لدفع ضيمٍ أو لشدّ عقدِ

وتوفي عبد المطلب ولرسول الله ﷺ ثماني سنين، ولعبد المطلب مائة وعشرون سنة، وقيل مائة وأربعون سنة وأعظمت قريش موته[(٢)]...

وتحت موضوع ولاية العباس على سقاية زمزم جاء في السيرة النبوية لابن هشام عن ابن إسحٰق أنه قال: «فلما هلك عبد المطلب بن هاشم، ولي زمزم، والسقاية عليها بعده: العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذٍ من أحدث إخوته سنًّا، فلم تزل إليه حتى قام الإسلام وهي بيده، فأقرّها رسول الله ﷺ، له على

(١) تاريخ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٠ ـ ١١. (٢) تاريخ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٣.

ما مضى من ولايته، فهي إلى آل العباس، بولاية العباس إياها، إلى هذا اليوم...»[1].

ولا مراء فيما تلعبه المكانة الاجتماعية من دور فعّال في تكوين الشخصية، وفي البيت التالي يمكننا استشراف شخصية صفية على حقيقتها من خلال أمجاد وفضائل آبائه وإخوته، وهو قول الشاعر:

جميع الصفات الغرّ وهي تراثه　　　من كل غطريف وشهم أصيد

إن انتقال السيادة والشرف والسؤدد من عبد المطلب والد صفية إلى الزبير وأبو طالب، والعباس، أبناء عبد المطلب، كان مما يجعل مركز أبناء العائلة من الرجال والنساء موضع الاهتمام والإجلال بين أبناء المجتمع آنذاك..

وصفية الشاعرة، لا بد وأنها كانت كثيرًا ما تشيد بتلك الأمجاد بغرر من القصائد المعطرة والمطرزة بالفخر والاعتزاز.. ولكن يبدو أن التاريخ لم يحفظ لنا من تلك القصائد شيئًا يُذكر..

واللوم كل اللوم يقع على غياب عامل التدوين آنذاك، بالوسائل اللازمة للمحافظة على التراث بشكل دقيق، وكذلك الاعتماد على حفظ القصائد شفاهًا، والذي غالبًا هو الآخر ما يتعرض للنسيان أو الإهمال..

وإلا فليس من المعقول أن تترك صفية وهي شاعرة فصيحة من بني هاشم، ذكر أمجاد هذا البيت العريق والأصيل، ذات المركز المرموق، في قريش، وبين العرب في الشرف والسيادة.. والتي حازت على الدرجات العليا من قبل الناس آنذاك.. بل ولربما كان الرواة قليلي الاهتمام بحفظ شعر النساء الشاعرات لاعتبارات وقياسات اجتماعية معينة كالأعراف والتقاليد وما ضارعها... ومهما تكن درجة الإهمال والافتراض، في هذا الشأن من الصحة، فإن قلم التاريخ لم يسجل لنا شيئًا من شعر صفية في هذا المجال.. اللهم إلا نتفًا من أشعارها في الرثاء قالتها في أبيها عبد المطلب وأخيها أبو طالب وأخيها الآخر الزبير، كما رثت ابن أخيها الرسول ﷺ وحمزة شقيقها.

---

(١) السيرة النبوية، القسم الثاني، ص ١٧٨ ـ ١٧٩.

قصة القداح، وصفية، والمستقبل

لا بد أن بصمات قصة القداح كانت واضحة الآثار في شخصية صفية بنت عبد المطلب، إذ ليس من المنطقي والمعقول أن تمر هذه القصة في الذكريات الأولى مع الأيام لصفية، بشكل عابر في حياتها، الصاعدة، دون أن تترك عليها أو تطبع في أحاسيسها الباطنية، انعكاساتٍ إيجابية، ودلالات مؤثرة فيما بعد، خاصة وإن عبد المطلب (والد صفية)، وأولاده (وهم إخوة صفية) كانوا محور هذه القضية ورموزها وأبطالها.. وكانت هذه القصة حديث القوم ـ بشكل متواصل ـ في مجالسهم ونواديهم وسهراتهم ولقاءاتهم، وليس المهم أن تكون صفية قد كانت كبيرة في تلك اللحظة، بل يظهر أنها لم تولد بعد، لكن ذلك لا يعدمنا أن نستنتج تأثيرها بهذا التراث المثير المتعلق بأبيها وأخوها، ولا بد أنها عرفت القصة إن لم تكن تدركها، في حينها، ولا بد أنها فهمت المغزىٰ والمدلول من هذه الحادثة كذلك..

وفحوى القصة هو أن عبد المطلب رأى في منامه أنه يذبح أحد أبنائه، فجمع بنيه، فلما ضرب القداح وقع على عبد الله والد رسول الله ﷺ، ولنقتبس القصة من اليعقوبي باعتبار أن كتابه من أقدم المصادر التاريخية:

«قال أبو إسحٰق وغيره من أهل العلم، تزوج عبد المطلب النساء، فوُلد له الأولاد، ولما كمل عشرة رهط، قال: اللهم إني قد كنت نذرت لك نحر أحدهم، وإني أقرع بينهم، فأصب بذلك من شئت.. فأقرعَ، فصارت القرعة على عبد الله بن عبد المطلب، وكان أحبّ ولده إليه، وكان ولده العشرة: الحارث وبه يكنى، وقثم، وأمهما: صفية بنت جندب من ولد عامر بن صعصعة.. والزبير، وأبو طالب، وعبد الله والمقوم، وأم الأربعة: فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم..

وحمزة، وأمه: هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة..

والعباس، وضرار، وأمهما: نتيلة بنت جندب بن كليب بن النمر بن قاسط..

وأبو لهب، وهو عبد العُزى، وأمه: لبنى بنت هاجر بن عبد مناف بن ضاطر الخزاعي..

والغيداق وهو حجل وأمه ممنعة بنت عمرو بن مالك بن نوفل الخزاعي..

وكانت بناته ستًّا: أم حكيم البيضاء، وعاتكة، وبرة، وأروىٰ، وأميمة، وأمهنّ جميعًا: فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم..

وصفية وأمها: هالة بنت أهيب..

فانطلق عبد المطلب بعبد الله ليذبحه، وأخذ الشفرة، واتبعه ابنه الحارث، فلما سمعت ذلك قريش لحقته، وقالت: يا أبا الحارث: إنك إن فعلت ذلك صارت سنة في قومك، ولم يزل الرجل يأتي بولده إلى هٰهنا ليذبحه، فقال: إني عاهدت ربي، وإني مُوفٍ له بما عاهدته.. فقال له بعضهم: افدِهِ!! فقام وهو يقول:

عاهدت ربي، وأنا موفٍ عهده   أخاف ربي إن تركتُ وعده

والله لا يُحمد شيء حمده

ثم أحضر مائة من الإبل، فضرب بالقداح عليها، وعلى عبد الله، فخرجت على الإبل، فكبّر الناس وقالوا: قد رضي ربك!!

فقال عبد المطلب:

لهمّ ربَّ البلد المحرم   الطيّب المبارك المعظم

أنت الذي أعنتني في زمزم

ثم قال: إني معيد القداح، فأعادها، فخرجت على الإبل، فقال:

لهم قد أعطيتني سؤالي   أكثرت بعد قلةٍ عيالي

فاجعل فداه اليوم جُلّ مالي

ثم ضرب بالقداح ثالثة، فخرجت على الإبل، فنحرها، ونادى مناديه ألا فخذوا لحمها، وانصرف عنها، ووثب الناس يأخذونها، فلذلك يقول مرة بن خلف الفهمي:

كما قُسّمت نهبًا ديات ابن هاشم   ببطحاء بسْلٍ حيث يُعتصب البَرْكُ

وصارت الدية على ما سنّ عبد المطلب[1].

---

(١) راجع تاريخ اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٥٠ ـ ٢٥٢.

نعم إن صفية، وهي أخت عبد الله، وهي بنت عبد المطلب، لا بد أنها استلهمت بعد مضي السنين من هذه القصة دلالات مجهولة في حينها، كانت لها الأثر الكبير في استجابتها السريعة لدعوة محمد بن عبد الله ﷺ، حين دعاها إلى الإسلام، وخاصة أن محمد بن عبد الله هو ابن أخيها، الذي وقع عليه القداح، ثم أفتدي بالإبل فيما بعد.

إنّ هناك ربطًا معنويًا بين قصة القداح، وقِصة ترشيح العناية الإلـهية في كون النبوة قائمة في صلب عبد الله... والأحداث الجارية التي ترتبت في أن يكون ابن عبد الله (الوحيد) هو النبي، دون غيره من أبناء عبد المطلب لها دلالاتها العميقة، ومعانيها البعيدة، واستشرافاتها المقصودة من إرادة السماء..

ولا ضير في القول بأن هذه القصة الواقعية جعلت صفية تنظر إلى مقام عبد الله بالإجلال والاعتبار، وقد تجسّمت نظرتها هذه في اعتزازها البالغ بمحمد بن عبد الله فيما بعد.

وقد شملت نظرة المجتمع إلى عائلة عبد المطلب بما فيهم الرجال والنساء، نظرة الإجلال والاعتبار والتمجيد، وذلك لأن القصة، على الرغم من أن محورها عبد الله، فإنها لا تخرج عن نطاقهم، وأنها لا بد أن تركت بصمات كانت لها آثارها عليهم جميعًا، حيث جعلت عندهم حالة التطلع إلى أمور جديدة، ستظهر نتائجها في هذه العائلة، من الأمور المتوقعة التي لا غرابة فيها..

وكانت تلك مقدمة في آمال حياة جميع أولاد عبد المطلب، للتنقل إلى آفاق متطورة من الحالات الجديدة التي ستولد بعد هذه القصة مستقبلًا.. وكانت الثمرة رسالة محمد.. ومن ثم دخول الأفواج المؤمنة تحت مظلة هذه الرسالة العظيمة.. وكانت صفية من السابقات في الإيمان بها..

رثاء صفية لأبيها عبد المطلب

كانت صفية شاعرة، كما نعلم، وكانت جميع بنات عبد المطلب كذلك ينشدن الشعر..

وقد رغب عبد المطلب أن ينشدن بحضرته أشعارًا رثائية في حقه قبل أن يفارق الدنيا في أيامه الأخيرة، وكان على فراش الموت يحتضر، وقد جمع من أجل ذلك جميع نسائه (بناته) قبل أن تحل ساعة رحيله من الدنيا ويكون وداعه للحياة الوداع الأخير قاب قوسين أو أدنىٰ..

وقد قمنا بذكر وتسجيل جميع أشعار بنات عبد المطلب في هذا الصدد، وذلك لأن أهمية إحداها لا تكمل إلا بذكر بقية القصائد الأخرى، ولأن المناسبة الخاصة والمشتركة لإنشاد هذه القصائد كانت منحصرة بهن، وبأمرٍ من والدهن عبد المطلب في ساعة احتضاره، وهي من أحرج اللحظات على الجمع آنذاك.. وخاصة أفراد العائلة..

جاء في سيرة ابن هشام في موضوع وفاة عبد المطلب وما رثي به من الشعر، أو ـ ما قيل فيه من الشعر ـ قال ابن إسحٰق: حدثني محمد بن سعيد بن المسيب: «أنّ عبد المطلب لما حضرته الوفاة وعرف أنه ميت، جمع بناته، وكنّ ست نسوة:

صفية، وبرة، وعاتكة، وأم حكيم البيضاء، وأميمة، وأرْوىٰ»..

فقال لهن: ابكين عليّ حتى أسمع ما تقلن قبل أن أموت..

قال ابن هشام: ولم أرَ أحدًا من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر، إلا أنه لما رواه عن محمد بن سعيد بن المسيب كتبناه..

رثاء صفية لأبيها عبد المطلب

فقالت صفيّة بنت عبد المطلب، تبكي أباها:

أرقت لصوتِ نائحةٍ بليلِ ... على رجل بقارعة الصعيد
ففاضت عند ذلكم دموعي ... على خدّي كمنحدر الفريد
على رجل كريم غير وغل ... له الفضل المبين على العبيد
على الفياض شيبة ذي المعالي ... أبيك الخير وارث كل جود
صدوق في المواطن غيرُ نكس ... ولا شخت المقام ولا سنيد
طويل الباع أروع شيظمي ... مطاع في عشيرته حميد
رفيع البيت أبلج ذي فضول ... وغيث الناسِ في الزمن الحرود
كريم الجدّ ليس بذي وُصومٍ ... يروق على المسَوَّد والمسُودِ
عظيم الحلم من نفر كرامٍ ... خضارمة ملاوثةٍ أُسود
فلو خلد امرؤ لقديم مجدٍ ... ولكن لا سبيل إلى الخلود
لكان مخلّدًا أخرى الليالي ... لفضل المجد والحسب التليد[1]

(١) راجع سيرة ابن هشام ـ القسم الأول ١٦٩ ـ ١٧٠ وما بعدها، وكتاب السير والمغازي ص ٦٦ =

«شرح الكلمات الصعبة»:

الفريد: الدر.

الوغل: الضعيف الشأن الساقط المقصّر في الأشياء..

النكس: الرجل الضعيف الذي لا خير فيه.

والشخت (بالفتح والتحريك): الدقيق الضامر من الأصل لا هزالاً.

والسنيد: الضعيف الذي لا يستقل بنفسه حتى يسند رأيه إلى غيره.

الشيظمي: الفتى الجسيم.

الحرود: الناقة القليلة الدر، شبه الزمن في جدبها، به.

الوُصوم: جمع وصم وهو العار.

الخضارمة: جمع خضرم وهو الجواد المعطاء والسيد الحمول..

والملاوثة: جمع ملوث من اللوثة وهي القوة.

رثاء برة بنت عبد المطلب لأبيها

وقالت برّة بنت عبد المطلب تبكي أباها:

أعينيّ جودا بدمعٍ دِرَرْ ... على طيّب الخيم والمعتصر
على ماجد الجدّ واري الزناد ... جميل المحيّا عظيم الخطر
على شيبة الحمد ذي المكرمات ... وذي المجد والعزّ والمفتخر
له فضل مجد على قومه ... منير يلوح كضوء القمر
أتته المنايا فلم تشوه ... بصرف الليالي وريب القدر

شرح الكلمات الصعبة:

الخيم (بالكسر): السجية والطبيعة، ومعنى كونه.

طيب المعتصر: أنه جواد عند المسألة.

الفجر: العطاء، والكرم، والجود، والمعروف، والمال وكثرته.

= ٦٧ ـ ٦٨ وما بعدها كذلك.

لم تشوه: لم تصب الشوى بل أصابت المقتل.

والشوى: الأطراف.

رثاء عاتكة بنت عبد المطلب

وقالت عاتكة بنت عبد المطلب تبكي أباها:

أعـيـنـيّ جـودا ولا تـبـخـلا ... بـدمـعـكـمـا بـعـد نـوم الـنـيـام
أعـيـنـي واسـحـنـفـرا واسـكُـبـا ... وشـوبـا بـكـاءكـمـا بـالـتـدام
أعـيـنـيّ واسـتـخـرطـا واسـجـمـا ... عـلـى رجـلٍ غـيـر نـكـسٍ كـهـام
على الجحفل الغمر في النائبات ... كـريـم الـمـسـاعـي وفـيّ الـذمـام
على شيبة الحمد واري الزّناد ... وذي مصدقٍ بعدُ ثبت المقام
وسيفٍ لدى الحرب صمصامه ... ومُردى المخاصم عند الخصام
وسهل الخليقة طلق اليدين ... وفـي عُـذمُـلّيّ صـمـيـم لـهـام
تـبـنّـك فـي بـاذخٍ بـيـتُـه ... رفـيـع الـذؤابـة صـعـب الـمـرام

شرح الكلمات الصعبة»:

اسحنفر المطر وغيره: كثر صبه.

الالتدام: ضرب النساء وجوههن في النياحة.

استخرط الرجل في البكاء: لجّ فيه..

الكهام: الرجل الكليل المسن.. تريد أنه ليس بنكس أي ضعيف ولا كليل..

الجحفل: الرجل العظيم، والسيّد الكريم..

العُدملي: الضخم.

اللهام (كغراب): الكثير الخير.

رثاء أم حكيم لأبيها

وقالت أُم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب تبكي أباها:

ألا يـا عـيـنُ جـودي واسـتـهـلّي ... وبـكّـي ذا الـنّـدى والـمـكـرمـات

ألا يا عين ويحكِ اسعفيني ... بدمع من دموع هاطلات
وبكّي خير من ركب المطايا ... أباك الخير تيّار الفرات
طويل الباع شيبة ذا المعالي ... كريم الخيم محمود الهبات
وصولًا للقرابة هبرزيًا ... وغيثًا في السنين الممحلات
وليثًا حين تشجَر العوالي ... تروقُ له عيونُ الناظرات
عقيل بني كنانة والمرّجى ... إذا ما الدّهر أقبل بالهنّات
ومفزعها إذا ما هاج هيجٌ ... بداهية وخصم المعضلات
فبكّيه ولا تسمي بحزنٍ ... وبكّي، ما بقيتِ الباكيات

«شرح الكلمات الصعبة»:

الخيم: الطبيعة والسجية.

الهبرزي: الجميل الوسيم. ويقال: الحاذق في أمره.

الهيج: الحرب، وهو من التسمية بالمصدر.

رثاء أميمة لأبيها عبد المطلب

وقالت أميمة بنت عبد المطلب تبكي أباها:

ألا هلك الراعي العشيرة ذو الفقد ... وساقي الحجيج والمحامي عن المجد
ومن يؤلف الضيف الغريب بيوته ... إذا ما سماءُ الناس تبخل بالرّعد
كسبت وليدًا خير ما يكسب الفتى ... فلم تنفك نزداد يا شيبة الحمد
أبو الحارث الفيّاض خلّى مكانه ... فلا تبعدن فكلّ حيّ إلى بُعد
فإني لباكٍ ما بقيتُ وموجعٌ ... وكان له أهلًا لما كان من وجدي
سقاك وليّ الناس في القبر ممطرًا ... فسوف أبكيه وإنْ كان في اللحد
فقد كان زينًا للعشيرة كلّها ... وكان حميدًا حيثُ ما كان من حمد

رثاء أروى لأبيها

وقالت أروى بنتُ عبد المطلب تبكي أباها:

بكتْ عيني وحقّ لها البكاء ... على سمح سجيته الحياء

على سهل الخليقة أبطحي كريم الخيم نيته العلاء
طويل الباع أملس شيظمي أغرَّ كأن غرّته ضياء
أقبّ الكشح أروع ذي فضول له المجد المقدّم والسناء
أبيّ الضيم أبلج هبرزي قديم المجد ليس له خفاءُ
ومعقل مالكٍ وربيع فهر وفاصلها إذا التمس القضاء
وكان هو الفتى كرمًا وجودًا وبأسًا حين تنسكب الدماء
إذا هاب الكماة الموت حتى كأن قلوب أكثرهم هواءُ
مضى قُدُمًا بذي رُبدٍ خشيب عليه حين تُبصره البهاء

«شرح الكلمات الصعبة»:

الشيظمي: المقول الفصيح.

الأقبّ: الضامر البطن.

الكشح: الخصر.

ويروي الرواة بيتين آخرين لصفية في رثاء أبيها[1]. وقيل في رثاء أخيها أبي طالب[2] وهما كما أوردهما الأنباري في كتابه الزاهر:

وقالت بنت عبد المطلب ترثي أباها:

والريس المعلوم والمعتفي في كلّ ما عال بني غالب
إنْ تمسي في رمس عليك البرى تسفي عليك المورُ بالحاصب

صفية ترثي أخاها الزبير بن عبد المطلب

وقالت صفية ﵂ ترثي أخاها الزبير بن عبد المطلب:

بكى زبير الخير إذ فات إن كنت على ذي كرم باكية
لو لفظته الأرض آمالها إذ أصبحت خاشعة عارية
قد كان في نفسي أن أترك الموتى ولا أتبعهم قافية

(١) راجع الزاهر ج ٢ ص ١٢١.
(٢) في المقصور والممدود للقالي ص ٩٩: قالت صفية بنت عبد المطلب ترثي أبا طالب.

فلم أطق صبرًا على رزئه ... وجدته أقرب إخوانيه
لو لم أقل من في قولًا له ... لفضت العبرة أضلاعيه
فهو الشامي واليماني إذا ... ما خضروا ذو الشفرة الدامية[1]

زواجــها

تزوجت صفية في الجاهلية مرتين، فكان زوجها الأول الحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس، فولدت له صيفي بن الحارث فمات عنها، ثم تزوجها العوام بن خويلد حيث قتل عنها يوم الفجار[2] بعد أن ولدت له الزبير، والسائب[3] الذي قتل يوم اليمامة[4]. وكان كلا الزوجين من الشخصيات المعروفة في الجاه والمركز والحسب في قريش. ويبدو أنها تألمت جدًا لأنها رزئت بحرمانها من نعم الزواج الأول والثاني، وقد امتزج مع هذا الحرمان حزن بالغ ظل تأثيره في نفسيتها فيما بعد.

أولاد صفية

وهم ـ كما ذكرهم صاحب كتاب ذخائر العقبىٰ ـ ثلاثة، الزبير والسائب وعبد الكعبة، فأما الزبير فقد جاء التفصيل عنه في كتاب مناقب العشرة. وأما السائب فأسلم وشهد أُحُدًا والخندق وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ وقتل يوم اليمامة شهيدًا، وأما عبد الكعبة فذكره أبو عمر في أولادها في باب صفية ولم يذكره في بابه. والزبير والسائب وعبد الكعبة بنو صفية وكلهم أسلموا وثبتوا على الإسلام.

---

(١) راجع ج ٣٦ ص ٤٢ ـ ٤٣ من كتاب (كنتم خير أمة أخرجت للناس) بعنوان (من المؤمنين نساء) تأليف الأستاذ خيرالله طلفاح بغداد، دار الحرية للطباعة ١٩٨٣ م.

(٢) راجع ص ٩٧ (المعارف) لابن قتيبة القاهرة ١٩٣٥ م/ ١٣٥٣ هـ.

(٣) راجع ص ٩ من كتاب سيرة الزبير بن العوام تأليف جميل إبراهيم حبيب، بيروت ١٩٨٦، الطبعة الأولى إصدار الدار العربية للموسوعات، وكذلك ج ٢ ص ٣٢ من (أسد الغابة في معرفة الصحابة).. وص ٩٤ من كتاب (السيرة النبوية الشريفة) نور الدين الكناني إصدار مكتبة النهضة ـ بغداد ١٩٩٠ م.

(٤) اليمامة: فتحت في أيام أبي بكر الصديق ﷺ سنة ١٢ هـ بقيادة خالد بن الوليد وبين اليمامة والبحرين عشرة أيام وهي معدودة من أراض نجد سميت بهذا الاسم نسبة إلى اليمامة بنت سهم في طسم وإليها تنتسب زرقاء اليمانة وقعتها معروفة راجع معجم البلدان ٥/ ٤٤١، ٤٤٧.

وفي نسب قريش أن صفية ولد للحارث بن حرب بن أمية: صُفيّا ولدت عبد الله بن ربيعة بن أكتم الأسدي (أسد خزيمة) من رهط بني جحش بن زياد، حلفاء حرب بني أمية [يراجع ج ٧ ص ١٣٥ نسب قريش] وورد في هامش الصفحة ج ٧ ص ١٣٥ أيضًا: صفيا: بضم الصاد وفتح الفاء وتشديد الياء بعدها ألف وقد ذكرها ابن حبيب في المحبر (ص ١٧٣) قال: وكانت صفية قبل العوام بن خويلد عند الحرث بن حرب بن أمية، فولدت له صُفيّا، فتزوجها ربيعة بن أكتم هذا، فولدت له جارية، وقد استفدنا من هذا الكتاب ـ نسب قريش ـ أنها ولدت له ولدًا هو عبد الله بن ربيعة، وفي جمهرة الأنساب (ص ١٠٢) أنه لا عقب للحرث بن حرب، فهو يريد بذلك العقب من الذكور الذين يذكرون في عمود النسب. اهـ.

وورد أيضًا في «نسب قريش» للمصعب الزبيري عن أولاد صفية من العوام بن خويلد قال:

وكانت صفية بنت عبد المطلب عند العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزىٰ فولدت له الزبير، سماه رسول الله ﷺ «الحواريّ» قال «لكل نبيّ حواريّ، وحواريّ الزبير».. والسائب: قتل يوم اليمامة شهيدًا[1]، وأم حبيب تزوجها خالد بن أم حسن بنت خالد ليس لها عقب[2]..

دور صفية في زواج النبي ﷺ من خديجة

شاركت صفية في مراسيم خطوبة محمد ﷺ من خديجة وحضرت في كل فقرة من فقراتها، وكانت مشاركتها بهذه المناسبة المباركة تعبير صادق من جانبها ودليل على الحب الكبير لابن أخيها محمد بن عبد الله ﷺ. وقد صرح المؤرخ الاخباري أبو الحسن البكري[3] إلى اسم صفية بشكل مباشر عدة مرات أثناء استعراضه لشريط قصة هذا الخبر، وعليه فلا بد والحالة هذه أن نقف على حقيقة خبر القصة بتمامها، من أولها إلى آخرها، حتى نستشرف الدور الكامل والفعال لحضور صفية وسط هذا الحشد الغفير، ومن ثم نقف على حقيقة إحساسها البليغ

(١) راجع الاستيعاب ج ٢ ص ١٠٠.
(٢) انظر ج ١ ص ٢٠ (نسب قريش) في موضوع (ولد عبد المطلب بن هاشم).
(٣) راجع الأنوار في مولد النبي ﷺ: أبو الحسن بن عبد الله البكري منشورات المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف. الطبع بلا تاريخ.

والمليء بالحب والتقدير لمحمد ﷺ والذي يعجز القلم عن تصويره والتعبير عنه بالكلمات.

ذكرنا في كتابنا (الحمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء وأسد رسول الله) في هذا الصدد فقلنا[١] بما نصه:

.. وقد قام العالم البكري بالتفصيل في قضية زواج محمد ﷺ من السيدة خديجة ﷺ، وبأسلوب شعبي، يتجاوز الأساليب التاريخية المعتادة، ولكنه ومع ذلك، فإن النصوص التي سنقدمها لا تخلو من الفائدة الأدبية في التعبير عن الرموز التاريخية ـ التي تشير هذه الأخيرة بدورها إلى حقائق لا يمكن الشك بها، ودلالات لها معاني واضحة المقاصد..

والقصة بدورها تحفل باسم ـ صفية ـ وتشيد بدورها المتحرك والمبني على إيجابية الموقف ضد أعداء محمد ﷺ التقليديين الذين وقفوا كعادتهم موقف الرفض والمعارضة والحيلولة دون إتمام هذا الزواج المبارك.

لقد كان زواج محمد بن عبد الله بن عبد المطلب من خديجة بنت خويلد، ظاهرة حبلى ومنبئة بأمور جديدة ستقوض أركان المجتمع الجاهلي المشرك، وستقضي عليها إلى الأبد.. ولذلك فلا غرابة أن يلاقي هذا الزواج دون غيره، معارضة قوية، من بعض رموز المجتمع العربي قبل الإسلام.

وكانت مؤهلات محمد، للزواج من خديجة كاملة وعالية، من حيث النسب والشرف والأخلاق الزكية وكمال العقل وغيرها من الشمائل الطيبة والصفات الإنسانية الجليلة، كما كان أعمامه على أهبة الاستعداد لتحقيق جميع رغباته النبيلة، لأنها متركبة على الصدق والصواب ونضوج الهدف، وسمو الأماني، وبالأخص أبو طالب والحمزة بل وجميع العمات أيضًا وعلى رأسهن صفية.

ومن هنا تبرز المسرحية التاريخية لزواج النبي الكريم من السيدة الجليلة خديجة، عن كيفية احتدام الصراع بين رموز قريش المعارضة، وبين رموز الخير

---

(١) الحمزة بن عبد المطلب، تأليف جميل إبراهيم حبيب ص ٤١ ـ ٦٩، إصدار الدار العربية للموسوعات ـ بيروت ـ ١٩٨٦ م، بتصرف وإضافة بعض الشيء..

والسؤدد والشرف العريق، ثم نجد دائمًا وفي حلقات متكررة ومتصلة الدور الحضوري الحاسم الذي تمثلته صفية بالتضامن مع إخوتها أعمام محمد ﷺ لتعضيد زواج ابن أخيها محمد بن عبد الله من السيدة خديجة، والتصدي لوجه الرموز التي بذلت أقصى طاقاتها وما ملكتها من وسائل ملتوية، في عرقلة عملية هذا الزواج. . ، وإفشالها، ولكنِ بجهود أعمام الرسول ﷺ المشار إليهم سابقًا وكذلك عماته وبالأخص صفية أرغم المعارضين بالإذعان للأمر الواقع، وكانت النتيجة أن انتصر جانب محمد ﷺ في الحصول على النتيجة الإيجابية لصالحهم، وهو إكمال كافة الخطوات المترتبة لزواج محمد وخديجة، ولا بد ونحن ننوّه بأهمية هذه القصة وأبطالها ودلالاتها أن نستقي القصة بجوانبها وذلك للانتباه إلى الحلقات المهمة التي تُظهِر شخصية صفية الباهرة.

اشترطت خديجة على محمد، ضرورة حضور أعمامه إلى الخطبة،. . . وبطبيعة الحال قام محمد ﷺ بتوجيه الدعوة إلى أعمامه وعمّاته (ومنهن صفية)، لخطبة خديجة من أبيها. .

فذهب النبي ﷺ إلى عمه أبو طالب وقال له: لي إليك حاجة! فقال: وما هي؟ قال: تنهض أنت وأعمامي تخطبوا لي خديجة من أبيها خويلد. فلم يرد أبو طالب جوابًا، ثم قال: يا حبيبي إليك نسير، وبأمرك نستشير، وبفضلك نستدل، وأنت تعلم أن خديجة امرأة ميمونة، كاملة، فاضلة، تخشى وتحذرُ الشنار، وقد عرفت قبلك رجلين، أحدهما (عتيق) والآخر (عمرو الكندي)، وقد رزقت منه ولدًا، وقد خطبوها، ملوك العرب، وصناديد قريش، ورؤوس بني مخزوم، وسادات بني هاشم، وملوك اليمن، وأكابر الطائف[1]، وبذلوا لها من الأموال، فلم ترغب في أحدٍ منهم، ورأت أنها أكبر منهم، وأنت يا ابن أخي فقير لا مال لك، ولا تجارة، وخديجة مزاحة عليك، فلا تعلل نفسك بمزاحها ولا تسمع قريش هذا الكلام أبدًا.

فقال أبو لهب: يا ابن أخي لا تجعلنا في أفواه الناس ومجالس العرب وأنت لا تصلح لخديجة أن تتزوج بها! فانتهره العباس وقال: والله إنك لخسيس في الرجال، أفحش الكلام، وما عسى أن تقول في ابن أخي، والله إنه أكثر منهم

(١) الطائف: بلدة تقع إلى جنوب شرق مكة المكرمة، على بعد حوالي (١٠٠) مئة كيلومتر، وهي في قمة جبل شاهق، وتكثر فيها المزارع والبساتين المتنوعة الفواكه والثمار،. . ومنها معتدل. . يُراجع (معجم البلدان) حرف الطاء لزيادة المعلومات.

جمالًا وأزيد منهم مالًا وأعلى منهم حسبًا ونسبًا، وبم تتكبر عليه خديجة! بمالها!! فأقسم برب الكعبة إن طلبت مالًا لأركبن جوادي وأطوف في الفلوات ولأدخلن على الملوك وأجمع لخديجة ما تطلبه من الجمال والمال!!.. فقال لهم النبي ﷺ: «يا معاشر الأعمام قد أطلتم الكلام فيما لا فائدة فيه، فقوموا واخطبوا لي خديجة من أبيها خويلد، فما عندكم من العلم مثل ما عندي»..

قال ـ الراوي ـ: فنهضت صفية عمة النبي ﷺ وقالت: إعلم أن محمدًا صادق اللهجة، واضح الحجة، وخديجة مزاحة، فأنا أبين لكم باطن الحديث، ثم إنها لبست أفخر أثوابها، وسارت قاصدة إلى منزل خديجة، فلقاها بعض جواريها في الطريق فسبقتها إلى البيت وأعلمت خديجة بإقبال صفية..

وكانت خديجة ـ حين قدمت إليها صفية ـ قد عزمت على النوم، ونزلت إلى الدار، ولم تترك أحدًا معها من الجواري، فلما نهضت تمشي.. عثرت.. فقالت: لا أفلح من عاداك يا محمد!! فسمعت صفية كلام خديجة فقالت، جاء الدليل.. ثم قرعت الباب، ففتحت لها خديجة ولاقتها بالرّحب والسعة، وأمرت لها بالطعام..

فقالت لها صفية: يا خديجة ما أتيتكِ لطعام ولا لشراب، ولكن يا ابنة العمّ قد نُقل إلينا من عندكِ كلام.. وقد جئنا نسألكِ عنه، هل صحيح أم لا؟

فقالت خديجة: بل هو صحيح إن شئتِ تبديه وإن شئت أنا أبديه، وأنا قد خطبت محمدًا لنفسي وتحملت مهري، وحططتُ عنه أمري، فلا تكذبوه إن كان قد نقل إليكم حديثًا فهو حق، فإني أعلم بأنه مؤيد من ربِّ العالمين، فوحق الذي سطح الأرض على الماء لا بد لي منه..

فتبسمت صفية عمة النبي ﷺ وقالت: والله إنكِ لمعذورة فيمن أحببت، غير ملامة، والله يا خديجة ما شاهدت عيني مثل جبينه تحت عمامته ولا أعذب من كلامه، ولا أحلى من لفظه، ثم إن صفية تمثلت تقول:

الله أكبر كل الحسن في العربي ... كم تحت غرة هذا البدر من عجب
قوامه ثم إن مالت ذوائبه ... من خلفه فهي تغنيه عن الأدب
تبت يدا لائمي فيه وحاسده ... وليس لي سواه قط من أدب

قال: ثم إن صفية عزمت على الخروج من عند خديجة، فقالت لها:

تمهلي قليلًا.. ثم إن خديجة خلعت على صفية خلعة بهية وضمتها إلى صدرها، وقالت لها (أي صفية) بالله عليكِ، ألا ما عاونتني على ما أطلب من محمد ﷺ، من قربه!!..

قالت صفية: بربّ الكعبة حبًّا وكرامة..

ثم خرجت صفية من عندها طالبة منزلها، فقال إخوتها ما ورائكِ يا ابنة الصادقين؟

قالت لهم صفية: والله إن خديجة راغبة في محمد ﷺ ما يزيد على الوصف، ولا حَدَّ له، فإن كنتم عازمين فقوموا.. فوالله ما قال محمد إلا حقًّا!!!

ففرحوا، بذلك جميعهم، إلا أبو لهب.. فإنه زاد به الغيظ والكمد وذلك لسبب شقاوته السابقة، حيث إن خديجة تتصل بمحمد ﷺ... وبعد ذلك زعق بهم العباس، (وصفية حاضرة ومسرورة)، وقال: ما قعودكم إذا حصل مرادكم فانهضوا وقوموا.. قال: فنهض أولاد عبد المطلب، قاصدين منزل السيدة خديجة، وقد عمد أبو طالب إلى النبي ﷺ، وألبسه أفخر أثوابه وقلده سيفًا، مذهّبًا، وأركبه جوادًا أغرّ.. ودار حوله عمومته محدقون به وإلى منزل خديجة قاصدون... فلقيهم أبو بكر بن أبي قحافة.. فقال: إلى أين تريدون يا أولاد عبد المطلب، وقد كنت قاصدًا إليكم في حاجة خطرت ببالي!!!

فقال العباس: وما هي يا ابن أخي أبي قحافة؟

قال: رأيت في منامي كأن نجم قد ظهرت في منزل أبو طالب وتعالى في أفق السماء وقد أنار واستنار إلى أن صار كالقمر الزاهر ثم نزل بين الجدران فقصدت إليه لأعرف أين نزل، وإذا به قد نزل في دار خديجة بنت خويلد.. وقد دخل تحت ثيابها، فهذه رؤياي.. فقولوا لي ما تأويلها؟ فقال أبو طالب: ها نحن إليها سائرون وفي خطبتها معولون فما أصدق رؤياك يا ابن أبي قحافة!!

فقال أبو بكر: بالله عليكم خذوني معكم..

فقال أبو طالب: سر معنا..

ثم ساروا حتى دخلوا منزل خديجة، فسبقهم الجواري إليه وأخبروهم بقدومهم.. وكان خويلد ـ والد خديجة ـ يشرب الخمر، وقد لعبت الخمر في

رأسه، فلما نظر إليهم قام قائمًا على قدميه، وقال: مرحبًا بكم، وأهلًا وسهلًا، يا أبنائنا وأعزّ الخلق علينا، ثم رفع منازلهم وأعلا مراتبهم وقدم لهم طعامًا..

فقال أبو طالب: يا خويلد ما أتينا لطعام ولا لشراب ولكن أنت تعلم أنكم لنا قرابة وبنو عم وليس لأحد شرف كشرفنا، ونحن وأنتم في الحال سواء، ونحب أن لا تخالفنا ونُريد أن نقرب ابنتك من محمد، فهو يزينها ولا يشينها، وقد جئناك خاطبين ولابنتك خديجة راغبين..

فقال خويلد: من الخاطب ومن المخطوبة!! قال أبو طالب: أما الخاطب فهو ابن أخينا محمد، وأما المخطوبة فهي ابنتك خديجة.. فلما سمع خويلد كلامه، اصفرّ لونه وتغيّر وجهه، وازورت حدقته، وقال: والله إن فيكم الكفاية وأنتم منّا أعزّ الخلق علينا غير أن خديجة امرأة قد ملكت نفسها ورأيها أعلىٰ من رأيي، وأما أنا، لا يطيب لي أن يخطبها الملوك ولا يكون زوجها فقير صعلوك، قال: فقام حمزة إليه وانتهره، وقال: يا خويلد ما يعادل اليوم بالأمس، ولا يشاكل القمر بالشمس، يا بادي الجهل ويا سخيف العقل، أمّا أنت فقد غاب رشدك، وذهب عقلك، يا ويلك أتثلب ابن أخينا محمد؟ أما علمت لو احتاج إلى أموالنا وأرواحنا فدينا الكل بين يديه، وأحضرنا الجميع لديه، ولكن سوف يبان لك عقيب قولك، ثم نفض ثيابه وقام ونهض إخوته وساروا إلى منازلهم وقلوبهم تغلي كغلي المرجل إلى المنار.. فبلغ الخبر إلى خديجة فزاد بها الوجد واشتد عليها الغرام والكمد، فالتفتت إلى العبيد والجواري وقالت: يا ويلكم عليّ بعمي «ورقة» فلم يكن إلا ساعة وإذا قد دخل عليها عمها «ورقة» فقامت إليه، ورفعت محله، وأعلت منزلته.. وقالت: يا عمّ لا غابت عني طلعتك ولا عدمت رؤيتك ثم أطرقت إلى الأرض، وقطبت حاجبيها، فنظر إليها، وقال: يا خديجة كأنك راغبة في الزواج.. قالت: نعم.. قال: يا خديجة خطبتك الملوك والقبائل وصناديد العرب، فلم ترضين لأحد منهم.. قالت: لا أريد من يخرجني من مكة ولا أريد إلا من سكانها..

قال: يا خديجة قد خطبك شيبة بن أبي ربيعة، وعقبة بن أبي معيط، وأبو جهل بن هشام، والصلت بن أبي يهاب، فأبيتي أن تتزوجي بأحد منهم!! قالت: يا عم ما أريد مَن كان فيه عيب.. قال لها ورقة: صِفي لي عيوبهم.. قالت: صِفها لي أنت لأنك بهم عارف.. قال: يا خديجة أما شيبة ففيه سوء الظن.. وأما عقبة

فهو كبير السنّ، وأما أبو جهل فإنه بخيل، كره النفس.. وأما الصلت فإنه رجل مطلاق.. قالت: لعن الله مَن ذكرت فهل خطبني غير هؤلاء أحد؟! قال: نعم خطبك محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف.. قالت: يا عمّ هل تعرف فيه عيبًا؟ قال: وكان ورقة عنده علم من الكتب السابقة[1] بما يكون من أمر النبي ﷺ، فلما سمع ورقة كلامها طأطأ رأسه ثم قالت: صف لي عيبه يا عم! قال لها: أصله أصيل، وفرعه طويل، وطرفه كحيل، وخلقه جميل، وخده أسيل، وفضله عميم، وجوده عظيم، ثم قال: والله يا خديجة ما كذبت فيما قلت.. قالت يا عم صف لي عيبه!! فقال ورقة: يا خديجة وجهه أقمر، وجبينه أزهر، وطرفه أحور، ولفظه أحلى من السكر، ورائحته أزكى من المسك والعنبر، إذا مشى تخاله البدر إذا بدر، لا والله بل هو أنور، وأزهر.. قالت: يا عم صف لي عيبه! قال: يا خديجة، مخلوق من الحسن الشامخ، والنسب الباذخ وهو أحسن، الشاهق العالم سيرة، وأصفاهم سريرة، لا بالطويل ولا بالقصير، اللاصق، إذا مشى تخاله ماء يتحدر، وشعره كالغيهب الأدجر، وخده أزهى من الورد الأحمر، ورائحته أحسن من الكافور والعنبر، ثم قال: يا خديجة إني أحبه.. قالت: أراك يا عم كلما قلت لك صف لي عيبه مدحته.. قال: يا ابنتي وهل أنا وحدي أمدحه!! ثم إن ورقة ازداد في مدح رسول الله ﷺ وجعل يقول:

لقد علمت كل القبائل والملا ... بأن حبيب الله أطهرهم قلبا
وأصدق من في الأرض قولًا وموعدًا ... وأفضل خلق الله كلهم قربا

ثم قال: يا خديجة إن محمدًا حليم كريم رؤوف رحيم رسول أمين عظيم وصول فهيم عطوف..

قال: فلما سمعت خديجة ذلك الوصف، قالت: يا عم إنهم يثلبونه. قال: إنما يثلبه أولاد الزنا، ولكن يقولون إنه فقير الحال لا مال له، فقالت: يا عم، الشاعر يقول:

إذا سلمت رؤوس الرجال من الأذى ... فما المال إلا مثل قلم الأظافر

ثم قالت خديجة: إنْ ماله قليل فمالي كثير، وأنا يا عم أحبه، ولكن أكتم ذلك عليّ.. قال ورقة: إذًا والله تسعدين وترشدين وتفوزين بنبي كريم ورسول

(١) الزبور والتوراة والإنجيل.

عظيم.. والله يا خديجة إنه نبي هذه الأمة وكاشف الظلمة.. قالت: يا عم والله إني أحبه وأنا التي أمرته أن يخطبني من أبي.. وأبي قد أبعده.. قال ورقة: ما الذي تعطيني حتى أزوجك من محمد ﷺ، في هذه الساعة!!.. قالت: يا عم: وهل لي شيء دونك أو يخفى عليك أمري أو يحجب عنك مالي وذخائري لك وبين يديك، وأنا في الغرام كما قال الشاعر:

إذا تحققتم ما عند صاحبكم ... من الغرام فذاك العذر يكفيه
أنتم سكنتم بقلبي وهو منزلكم ... وصاحب البيت أدرى بالذي فيه

قال ورقة: يا خديجة ما أريد منك شيئًا من حطام الدنيا وإنما أن تضمني لي الشفاعة من النبي ﷺ يوم القيامة، يوم الحسرة والندامة..

قالت خديجة: يا عم إني لا أعلم شيئًا مما تقول.. قال: اعلمي أن بين أيدينا حسابًا وعقابًا ومناقشة وعذابًا ولا ينجو من ذلك الهول العظيم إلا من اتبع محمدًا ﷺ وصدق برسالته، فيا ويح من زحزح عن الجنة وأدخل النار؟!..

فلما سمعت كلامه قالت: يا عم لك مني ما طلبت...، فخرج ورقة ودخل على أخيه خويلد وقد غلب عليه السكر، فنهض إجلالًا لأخيه، وأجلسه إلى جانبه والغيظ قد ظهر في وجهه، فقال له خويلد: ما تشرب! قال ورقة: ومن يُقتل أخوه كيف يشرب!! فقال: ومن يقتلني؟ قال: إنك تُقتل.. قال خويلد: وكيف ذلك! قال ورقة: لقد خالفت بني عبد المطلب وقلوبهم تغلي عليك كغلي المرجل على النار، وقد عزم حمزة أن يهجم عليك في دارك ويقلع آثارك وقد حلف بذلك..

قال خويلد، وقد طارت الخمرة من رأسه: وأي ذنب أذنبته على بني هاشم حتى يقتلوني.. قال ورقة: سمعت أنك تثلب ابن أخيهم محمد ﷺ.. قال ورقة: إنْ كنتُ فعلت ذلك وجب عليّ القتل، فالصدق أوفى وقائله أنجى وأعفى والله ما وطىء الثرى مثل محمد ﷺ، أنسيت ما جرى له في صغره وما ظهر منه في كبره، والله ما يثلبه إلا لئيم، ولا يعبده إلا زنيم، ولا يبغضه إلا رجيم.. قال خويلد: والله يا أخي ما ثلبت الرجل وأن محمدًا خيرًا مني، إنما طلب أن يتزوج خديجة.. قال ورقة: وإن طلب فما ينكر عليه! قال خويلد: والله ما أنكرت عليه، غير أنني خشيت من وجهين أَما الأول، تسبني العرب، حيث رددت أكابر أهل

مكة وأزوجها بفقير صعلوك لا مال له، والثاني أنها لا ترضاه يكون لها بعلًا، . . قال ورقة: أما العرب فما أحد منهم إلا ويتمنى أن يكون محمدًا، وأما خديجة فإنها قد عاينت فضله ورضيت به، وأما أنت فقد جلبت لنفسك من عداوة بني هاشم ما لا تطيقه، وإنهم لا يتركونك أبدًا، وإن تركوك ساعة أو بعض ساعة وبعدها كل من لقاك منهم، قتلك لا محالة، ولا سيما الأسد الهجوم حمزة القضاء المحتوم. . . فوالله إنْ قبلت قولي ورضيت بشوري، تسير معي حتى أدخلك على أولاد عبد المطلب، لعلهم يقبلون، عذري فيك، ويرفعون عنك هذه العداوة، إنهم لا يردون عذر من اعتذر إليهم، وتزوج خديجة من محمد ﷺ، والله ما تصلُح إلا لهُ، ولا يصلح إلا لها. . قال خويلد: يا أخي أخاف أن أمشي إليهم، فيكون سبب التلفِ، حيث أنهم غِضاب عليَّ!!. . قال ورقة: أنا أضمن لك هذا الأمر، فقم أنت وأنا. . فمضيا حتى دخلا على بني هاشم، . . فلما وقفا على الباب، وكان المقدر أن أولاد عبد المطلب في ذلك الوقت مجتمعين وبينهم النبي ﷺ، فنظر الحمزة إليه وهو مطرق إلى الأرض. . . فقال الحمزة: يا قرة العين فما يحزنك والله إن أمرتني لأتيتك برأس خويلد. . وكان خويلد على الباب يسمع الكلام. . فقال لورقة: اسمع. .

قال ورقة: اسمع أنت لعلك تصدق. . وكان ذلك تصديقًا لورقة في كلامه لأخيه خويلد. . فقال خويلد: نرجع يا أخي. . فقال ورقة: الآن تنظر ما يكون بيني وبينهم وما أصنع معهم، فإن القوم صادقون اللهجة، واضحون الحجة، لا يبعدون من قرب إليهم، ولا يهجرون من دخل عليهم. .

ثم إن ورقة قرع الباب. . فقال النبي ﷺ: «هذا ورقة وأخوه خويلد!!». . فقام الحمزة، طالبًا الباب، فوجد ورقة وخويلد قيامًا، فأخبر النبي ﷺ بذلك. . فقال أبو طالب بعد أن وجد ورقة وخويلد: الآن انصلحت الأحوال. .

فدخل خويلد ويده بيد ورقة خوفًا، والحمزة يفور حنقًا وغيظًا، فنادى خويلد: نعمتم صباحًا ومساءً وكفيتم شماتة الأعداء يا أولاد زمزم والصفاء وأبي قبيس وحرا. . فناداه أبو طالب: وأنت يا خويلد كفيت ما تخشى ولا شمتت بك الأعداء. . فانتهره الحمزة وقال له: لا أهلًا ولا سهلًا ولا قربًا لمن طلب منّا بُعدًا، وأرانا هجرًا وصدًا، وأراد أن يشمت بنا الأعداء. .

قال خويلد: لا كان ذلك أبدًا مني ولا باختياري، وأنتم تعلمون أن خديجة امرأة وافرة العقل جيدة الذهن مالكة نفسها وقد تكلمت بهذا الكلام لأسمع ما تقول والآن قد وجدت الامرأة فيكم راغبة وإليكم محبة وقد جئتكم لتقبلوا عذري وتغفروا ذنبي، والآن أنا لكم محب وأنا كما قال الشاعر:

ومن عجب الأيام أنك هاجري وما زالت الأيام تبدي بالعجائب
وما لي ذنب أستحق به الجنا وإن كان لي ذنب أتيتك تائبا

والآن يا أولاد عبد المطلب: إن خديجة لكم محبة وفيكم راغبة وأنا أيضًا موافق لها ولكم لأجل القرابة ولا تشمتوا بنا الأعداء.. وأنشد يقول:

عودونا الوصال فالوصل عذب وارحموا فالفراق والهجر صعب
زعموا حين عاينوا أن جرمي فرط حبي لهم وما ذاك ذنب
لا وحق الخضوع عند التلاقي ما جزاء قلب محب إلا يحب

[وكانت صفية تشرف على تطور مجريات الأمور وكادت أن تطير فرحًا وسرورًا عندما علمت بموافقة خويلد بزواج خديجة من محمد ﷺ]..

فقال حمزة: يا خويلد أنت عندنا عزيز كريم، وما ظننا أن تبعدنا عن قربك، فوالله يا ابن العم ما هو قولنا لك إلا كما قال الشاعر:

عليكم بحصن من رجالٍ فإنني رأيت حصونًا من صخورٍ تهدمت

قال الراوي: ثم إنّ ورقة قال: والله إنّا لمحمدٍ محبين ولرأيكم غير مخالفين، وإنما نريد أن تكون هذه الخطبة في غداة غدٍ في منزل خديجة على رؤوس الأشهاد حتى يحضرها الحاضر والبادي ليشهدوا علينا وعليكم وليكون منا لكل واحد الحجة على صاحبه والسلطان..

[كان حمزة شقيق صفية من الأب والأم، وكانا يتسابقان في حب محمد ﷺ ويتنافسان في إتمام زواج خديجة ومحمد بأسرع ما ينبغي أن يكون]:

قال حمزة: ونحن لا نخالف لك أمرًا.. قال ورقة: إنما هو كلام أعلمكم أن أخي ليس له لسان يخلصه عند العرب، وأريد أن يوكلني في أمر ابنته خديجة فإذا وكلني كنت أنا المحبوب عنها والمتكلم بين أيديكم، وأنتم تعلمون أني قد قرأت في سائر الكتب، وفهمت سائر الأديان.. قال الحمزة: قد صدق ورقة فيما

قال، يا خويلد هو وكيلك عن ابنتك.. قال خويلد: نعم.. قال ورقة: اسمعوا كلامه!.. قال خويلد: يا بني هاشم أشهدكم على أني وكلت أخي في أمر ابنتي خديجة وقد قبلت منه سائر الأحوال..

قال ورقة: أريد أن يكون هذا عند الكعبة بحضور أكابر مكة، فساروا حتى وصلوا إلى الكعبة، فوجدوا العرب مجتمعين بين زمزم والصفا، وهم يتحدثون، مثل النضر بن الحارث، ومطعم بن عدي، والصلت بن أبي يهلب المخزومي، ولائمة الحجاج، وهشام بن المغيرة، وأبو الجهل بن هشام وأخوه البحتري، وعثمان بن مالك، وسادات قريش.. فلما أشرف ورقة وخويلد، نادى ورقة: نعمتم صباحًا ومساءً، وكفيتم كيد الأعداء يا أولاد زمزم والصفا وأبي قبيس وحرًا، ومن بهم تُضرب الأمثال في جميع الأقطار، ..فزعق العرب على بكرة أبيهم إجلالًا،.. وقالوا: أهلًا وسهلًا بأبي البيان..

قال ورقة: يا معاشر قريش! يا بني زهرة! ويا بني مخزوم! ويا بني الحارث! ويا بني عدي! ويا بني لؤي! ويا بني غالب، ويا جميع من حضر، إني سائلكم ما تقولون في خديجة، فنطقت العرب، وقالوا: بخ بخٍ، لقد ذكرت والله الشرف الأوفى، والنسب الأعلى، والرأي الأذكى، ومن لَا يوجد لها نظيرٌ في النساء.

قال ورقة: أيجوز أن تكون بلا بعل! قالت العرب: هذا الأمر ليس بواجب ولقد شاهدنا الخطاب لها كثيرة، وقد أبت أن تقبل منهم، أحد.

قال ورقة: يا سادات العرب ألا أنيركم أن أخي قد وكلني في أمر ابنته خديجة وهي قد أمرتني أن أزوجها، وقد أخبرتني أن لها رغبة في سيّد من سادات قريش، وسألتها أن تسميه لي، فأبت عن ذلك، فأريد أن تحضروا في غداة غدٍ في منزل خديجة لتسمعوا الوكالة، فما يسعكم غير دارها، فإذا حضرتم غدًا، تنظرون أي سيّد، يكون، طلبتها، فتشير إليه وتسميه.

قال الراوي: فلما سمعوا كلامه، لم يبق سيد إلا قال في نفسه أنا المطلوب. فقالوا: يا ورقة أنت نعم الوكيل، ونعم الكفيل.. فقال ورقة: تكلم ما دامت السادات حضور.. قال خويلد: يا سادات العرب، إني نزعت نفسي من أمر ابنتي خديجة وخلعته من يدي، وجعلت أخي ورقة وليّ على ذلك وهو «وكيلي» وكفيلي، فلا أمر فوق أمره، ولا رأي فوق رأيه.

قال ورقة: اسمعوا يا جملة من حضر كلامه وإنه غير مقهور ولا مجبور ولا مغلوب على رأيه، ولا مخمور، وإني أزوجها بمن شئت وأطرد عنها من شئت.

فقالت العرب: شهدنا بجوار البيت الحرام..

فخرج خويلد وقد ذهب حكمه من خديجة..

قال - يعني الراوي -: وسار ورقة (بعد ذلك) إلى منزل خديجة وهو فرحًا ومسرورًا، فلما نظرته قد أقبل قالت: مرحبًا وأهلًا وسهلًا بك يا عم، هل قضيت لي حاجة؟!

قال: إني أبشركِ، فقد رجع أمركِ إليَّ، وقد صرت وكيلكِ وكفيلكِ وفي غداة هذه الليلة أزوجك بمحمد ﷺ.. فلما سمعت كلامه خلعت عليه بدلة قد اشتراها ميسرة من الشام بخمسمائة درهم..

فقال ورقة: لا ترغبيني في حكام الدنيا، فما أنا براغب فيه ولا أريد إلا الذي كان بيننا، قالت: لك ذلك.. ثم قال لها: جهزي أمرك وامزجي ذخائرك وعلقي ستورك وانشري حللكِ واكمدي عدوكِ وحاسدكِ، فما يدّخر المال إلا لمثل هذا اليوم واعملي وليمة عظيمة ولا تدعيها تعوز شيئًا فإن العرب في غداة غدٍ يأتون إلى منزلك ويجتمعون فيه وهو يوم فرح وسرور.

فلما سمعت منه ذلك نادت عبيدها وجواريها وأمرتهم أن يخرجوا التور والمساند والوسائط والبسط المختلفة الألوان، والحلل الكثيرة والعقائد والقلائد والمصاغ الباهرة والثياب الفاخرة، ولقد روت الرواة الذين كانوا مشاهدين تلك الليلة، إن الذين كانوا برسم الخدمة من العبيد والجواري مائتين وستين عبدًا، ومائتين وستين أمة، كلهم مماليك لخديجة، وكان لها من أواني الذهب مائة طشت، ومن الفضة مثلها، وكان لها ثمانون هاون من الذهب الخالص، لدق العطورات، ومائة كري من العرعر، ومائة كرسي من العاج المصفح المرصع بالذهب الوهاج بالدر والجوهر، وكان لها مال لا يُحصىٰ، .. فذبحت الذبائح ونحرت النحائر، وعقرت العقائر، وعقدت الحلاوات من القند والتمر، وجمعت من فواكه الطائف والشام ما يناسب ذلك..

وكان ورقة لما خرج من عندها قصد منزل أبي طالب فوجده وإخوته مجتمعين [...بما في ذلك صفية وهم ينتظرون نتيجة الخبر] فزعق بهم - ورقة -

وقال لهم: ما يقعدكم عن إصلاح شأنكم وأموركم، انهضوا في أمر خديجة، فقد صار أمرها إليّ وفي غداة غدٍ أزوجها بمحمدٍ ﷺ إن شاء الله تعالى.. وما فعلت ذلك إلا محبة لابن أخيكم محمدًا!! فعندها قال النبي ﷺ: «لا أنسى لك فعالك يا ورقة»..

ثم نادى أبو طالب: الآن طاب قلبي المنى، ثم تبادر بنو هاشم في إصلاح شأنهم، وخرج ورقة منصرفًا عنهم فرحًا مسرورًا، فعندها قام أبو طالب لعمل الوليمة، والحمزة وإخوته عنده، طربًا وعجبًا.. [وقامت صفية وإخواتها ونساء بني هاشم بتوفير وإعداد لوازم الوليمة على وجه السرعة وهنّ يهلهلن ويزغردن وينشدن الأشعار الجذلة الناطقة بالألحان والمعاني الجميلة].. وشهدت الملائكة، وسجدت للملك المنّان، وتجلى الجبار، وأوحى إلى رضوان خازن الجنان، بتزيين الجنان، ويخرج منها اللؤلؤ والمرجان، والحور والولدان، ويصف إقدام الشراب، ويزين الكواعب والأتراب، وأوحى الله تعالى ذكره، الأمين جبرئيل أن ينشر لواء الحمد على الكعبة، ثم تطاولت الجبال، وسبحت بحمد الملك المتعال، على ما خص به نبيه ورسوله وحبيبه، وفرحت به الأرض وأظهرت السرور وأخرجت الزهر والألوان مرحًا بما خص الله به النبي ﷺ.

ولم يغمض لصفية جفن في ليلتها بهذه المناسبة وذلك لما طغى على مشاعرها من حسرة وفرح.

ثم يمضي المؤرخ أبو الحسن بن عبد الله البكري قائلًا في كتابه المنسوب إليه «الأنوار في مولد النبي ﷺ»:

(قال الراوي): وباتت مكة تغلي كغلي المرجل على النار، فلما أصبح الصباح، أقبلت الطوائف والقبائل وسادات مكة، ودخلوا على خديجة قد أعدت لهم المساند والوسائد والفرش والكراسي ليجلس كل واحد منزلته..

فدخل أبو جهل يجر أطماره ويسحب أذياله وقد أرخى عذبته وراءه، ورد حمائل سيفه في عنقه، وقد أصدقت به بني مخزوم، فنظر إلى صدر المجلس وقد نُصب فيه أحد عشر كرميًا، وقد صُفَّ بأعلى مكان، فلم ير بأحسن منه، فتقدم إليه وزعم أنه له، ولقومه، فصاح به ميسرة وقال له: يا سيدي: تمهل قليلًا ولا تعجل فقد وضعت منزلتك في بني مخزوم، فرجع وهو خجلان، وجلس عند قومه، فما كان إلا ساعة وإذا بصيحاتٍ قد علت وصرخاتٍ قد ارتفعت، والناس قد تواثبت،

وإذا محمد ﷺ، والحمزة إلى جانبه وسيفه مجرد بيده وهو ينادي: يا معاشر السادات، وأرباب الأقدار، ومعدن الفخار، الزموا الأدب، وقلوا الكلام، وانهضوا على الأقدام، ولا تطلبوا الملام، ودعوا الكبر، فقد جاءكم الزمان الداعي إلى دار الهوان، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، سيد الأشراف، ومقري الأضياف، وراقي ذروة الأحقاف المتوج بالأنوار، صاحب السكينة والوقار، وقد قدم عليكم فنظروا العرب، وإذا بالنبي ﷺ، وهو متعمم بعمامة سوداء يلوح ضياء جبينه من تحتها، وعليه قميص عبد المطلب، وبردة العباس، وفي رجله نعلين، لجده عبد المطلب، وفي يده قضيب إبراهيم وقوس إسماعيل، ومتختم بخاتم من العقيق الأحمر، وقد شمر طرف بردته وأحدقوا به الناس، ينظرون إليه، وقد أحاطت به عشيرته، والحمزة بجنبه، وقد شخصت إليه الأحداق، وتطاولت إليه الأعناق، من جميع المخلوقات، يسلمون عليه، وقد ذهلت له الأمم، وقام كل قاعد على قدم.. وقد خرست منهم الألسن، وما فيهم من يتكلم، حتى سبقهم بالسلام، وأشار إليهم بالكلام، فنهضوا لهيبته قيامًا على الأقدام، ولم يبق منهم جالس إلا أبو جهل، وقال في نفسه إن كان الأمر لخديجة لتأخذن محمدا!! فنزل به الحسد، وظهر به الكمد..

فتقدم إليه حمزة، كالأسد الغضبان، وقبض على أطرافه وقال له: «قم لا سلمت من النوائب، ولا نجوت من المصائب». فزاد به الغيظ، ثم وضع يده على قائم سيفه، فسبقه إليه (الحمزة)، الهجوم، وقبض على يده حتى نبع الدم من تحت أظافره، فوكزه الحارث، وقال له: ويلك يا ابن هشام فما أنت عديل من نهض إليك، فإن لم تفعل لأنزعن رأسك عن بدنك!! فقعد مقهورًا، وخاف أن تعلم خديجة بما جرى عليه، لأنه كان ممن يرجو أن يتزوج بها.. فلما استقرت الناس بالجلوس، وإذا هم بصرخاتٍ قد ارتفعت والناس قد تواثبت، وإذا هم بخويلد، قد أقبل، وهو يزبد ويرعد ويزعق كالبعير الهائج، وقد خرج الزبد من أشداقه، فدخل ولم يسلم على أحد، ثم دخل على خديجة فلما صار معها خلف الحجاب ورفع الستر، قال لها: يا خديجة أين عقلكِ وأين سؤددكِ، أنا ما رضيت لكِ بالملوك والأكاسرة والشجعان والأبطال من قريش، وقد بذلوا لك الجزيل من المال، فلم ترضين بهم، ولم أرضاهم لكِ، فكيف رضيتِ بصبي يتيم، صعلوك فقير، بالأمس كان لكِ أجير، واليوم لك بعلًا يصير؟! لا كان ذلك أبدًا... ولو قتلت.. ولئن ذكرتيه لأعلونك بهذا السيف، فاليوم لا شك فيه تسفك الدماء،

وترمّل النساء، ويتيتم الأطفال، ثم نهض على قدميه، وأخذ سيفه بيده، كأنه مجنون متطير، حتى وقف بالأبطح، ثم عاد إلى منزل خديجة وهو كأنه الجمل الهائج من شدة السكر، ووقف على رؤوس الناس وقال: يا معاشر العرب من بني زهرة ومخزوم وبني عبد مناف وبني لؤي وبني عبد الدار وأهل زمزم والصفا: أشهدكم على أني لم أرضى محمد لابنتي بعلًا ولو دفع لي وزن أبي قبيس وحراء [ذهبًا]، ومن يلزمني به فما بيني وبينه إلا السيف، فما مثلي من يخدع بشرب المدام ولا يلح عليه بالكلام، والذي يتطاول في الزواج لا كان، ولا عمرت به الأوطان، ولا يكون ذلك أبدًا ثم إن خويلد تمثل:

ولو أنها قالت نعم لعلوتها | بحدّ حسامٍ للجماجم فاصلِ
فمن رام تزويج ابنتي بمحمدٍ | وإن رضيت يا قوم ليس بفاعلِ
وليس رضئ التزويج بالشرب نافع | وهذا مقال الحق هل من مقابلِ

قال ـ يعني الراوي ـ (كما يُفهم من سياق كلام مؤلف كتاب الأنوار في مولد النبي ﷺ):

فلما سمع الحمزة كلام خويلد، التفت إلى أبي طالب، وقال له: قم فما بقي للجلوس موضع، فقوموا بنا فما بقي قعود على إثارة الفتن!!.. فبينما هو كذلك، إذ أقبلت جارية خديجة وقالت: يا أبا طالب إنّ مولاتي تريدك، فكلّمها، فوقف أبو طالب خلف الحجاب، فقالت له خديجة: نعمت صباحًا يا سيّد الحرم، فلا تغتر بشقشقة أبي خويلد، فإنه ينصلح بأقل من شيء، ثم أخرجت له كيسًا فيه ألف دينار، وقالت له: يا سيدي خذ هذا الكيس وسِرْ به إلى أبي، كأنك تخاطبه وتعاتبه وصب المال في حجره فإنه يرضى، فسار أبو طالب حتى لحق به، فقال له: يا خويلد ادنُ مني، فقال: لا أدنو منك، فقال: يا خويلد إنه كلام تسمعه وإن لم يرضيك، وإلا فما أحد يغضبك، فدنا من أبي طالب، ففك أبو طالب الكيس فصبّ المال في حجره، وقال: يا خويلد هذا المال هدية من ابن أخينا لك غير مهر ابنتك.. فلما رأى خويلد المال، انطفت ناره وخمد شراره، وأقبل حتى وقف في الموضع الأول ونادى: يا معشر العرب من قريش اسمعوا كلامي وافهموا مقالي، فوالله ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء بأفضل من محمدٍ وقد رضيته لخديجة بعلًا ورضيتها له زوجة، وأهلًا، على رغم أنف الحاسدين والمعاندين، وأنتم كونوا على ذلك من الشاهدين.

قال (الراوي): فماج العرب فيما بينهم وجعلوا يتعجبون من كلامه، ويقولون ساعة يذمّه، وساعة يمدحه، والذي شاهد المال والحال ساكت لم يتكلم.. فلما سمع العباس ذلك قام قائمًا على قدميه ونادىٰ: يا معشر العرب لا تنكروا الفضل والمجد لأهله وأنتم تعرفون الشمس المضيئة، وتحيلونها عن مطلعها، فهل سقيتم الغيث إلا بمحمد!! وهل أخضر زرعكم إلا بمحمد!! وكم له من أيد كتمتموها وآيات ضيعتموها، وبالله أقسم ما فيكم من يعادله في صيانته وعفته وخلقه وأمانته، وأنتم تبغضونه، فلو رحل عنكم لساءكم رحيله وشق عليكم بُعده، واعلموا أن محمدًا لم يتزوج خديجة لمالها ولا لكثرة رجالها، واعلموا أن المال زائل، والفخر لا يزول، فلا تظهروا الشر، ولا تطيلوا الفكر، وكأنما ألجمهم بلجام، وأسكتهم عن الكلام حتى يسمعون ما يقول خويلد، فقال: يا أبا طالب ما الذي يؤخركم عما أنتم طالبون، افصلوا الأمر، فلكم الحكم، وأنتم الأحباء، ولابن أخيكم الرضا، وأنتم الرؤساء والخطباء، فليخطب خطيبكم، ويكون الفوز لنا، ولكم... فقام أبو طالب وأشار إلى الناس أن اسكتوا فسكتوا فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي جعلنا من نسل إبراهيم الخليل عليه السلام، وأخرجنا من سلالة إسماعيل عليه السلام، وشرفنا وفضلنا على جميع الأمم، وأنزلنا في حرمه، وأسبغ علينا نعمه، وصرف عنّا شرّ نقمه، وجعلنا في البلد، وساق لنا الرزق من كلّ فجّ عميق، ووادٍ سحيق.. الحمد لله على ما أعطانا وبه حبانا وأمدنا بالمقاربة والوصل، ليكثر منا النسل، وبعد هذا يا معشر من حضر، إنّ ابن أخينا محمد خاطب لكريمتكم الموصوفة وفتاتكم المعروفة، المذكورة فضلها، الشائع خبرها، خطبها من أبيها خويلد على ما يحب من المال..

فنهض ورقة قائمًا، وكان إلى جانب خويلد، وقال: نريد مهرها المقبل دون المؤجل، أربعة آلاف دينار ومائة ناقة حمر الوبر، سود الحدق، لم يعلها فحل، وثلاثين أمة، وليس ذلك بكثير عليكم، فهل إلى ما طلبنا؟!

فقال أبو طالب: رضينا بذلك..

قال ورقة: قد زوجت خديجة بمحمد وهو كفؤ كريم.. فنهض حمزة وكان معه دراهم فنثرها على رأس كل من كان حاضرًا، وكذلك باقي إخوته،.. فقال أبو جهل : يا قوم رأينا الرجال يمهرون النساء، وما رأينا النساء يمهرون الرجال!

قال الراوي: فنهض إليه أبو طالب وقال: يا لكع الرجال، ويا شين الفعال، مثل محمد يُحمل إليه ويُعطى، ومثلك لا يُهدى إليه، ولا يُقبل منه، ولا يُعطى ولا يُرضىٰ به.

قال الراوي: ومضى النبي ﷺ إلى عمه أبي طالب وأعمامه حوله، واجتمعت - صفية وباقي عمات النبي ﷺ - مع نساء بني عبد المطلب، وبني هاشم في دار خديجة، وقد غمرت قلوبهم الأفراح..

والفتيان يضربون الطارات والدفوف، ثم إن خديجة بعثت من يومها إلى النبي ﷺ، أربعة آلاف دينار، وقالت له: يا سيدي انفذ إلى عمك العباس والحمزة بهذه الدنانير، يعطيها إلى أبي خويلد، وانفذت مع المال خلعة سنية، فسار العباس والحمزة إلى منزل خويلد وألبساه الخلعة ودفعا إليه المال، فنهض خويلد من ساعته وأتى إلى منزل خديجة وقال: يا ابنتي هيئتِ نفسك للدخول فهذا مهرك قد انفذوه إليّ وقد وهبوا لي هذه الخلعة، والله يا ابنتي ما تزوجت النساء بمثلك بمثل محمد لا في الحسن ولا في الجمال، وقد حملت إليك هذا المال، ولم يدري إنها من عنده، فسمع أبو جهل ذلك، فجعل يبوح به بين الناس، فبلغ الخبر إلى أبي طالب، فتقلد سيفه ووقف في الأبطح والعرب مجتمعون وقال: «يا معاشر العرب قد بلغنا قول قائل وعيب عائب فإن تكن النساء قد أقمن بواجب حقنا فليس ذلك بعيب ويحق لمحمد أن يُعطى ويُهدىٰ إليه ويُكرم فمن سائه ذلك، فعلى رغم أنفه ومن تكلم في ذلك عجلنا حتفه»[1].

ولما بلغ الخبر خديجة - قامت ساعتئذٍ - بالرد على الحاسدين، وذكرت ما لمحمد ﷺ من الفضل والكرم والنسب والحسب وكمال العقل والأخلاق السامية، والعفة والأمانة، وسائر المحامد والمفاخر والمكارم الأخرىٰ... وقد تمت مراسيم زفاف خديجة إلى محمد ﷺ في أحسن صورة، وقلوب الناس ملأى بالبهجة والفرح والسرور والنشوة.. وقد غمر الفرح أيضًا، وبدرجة كبيرة قلوب أعمام النبي ﷺ بما فيهم أبو طالب والحمزة والعباس... وعماته، وفيهن بطبيعة الحال صفية، وأهل مكة، احتفالًا بزواج النبي ﷺ من خديجة بنت خويلد ﷺ[2]. وقد

(١) الأنوار في مولد النبي ﷺ، الجزء السابع، انظر تفاصيل القصة من الصفحة ٣٠٧ إلى الصفحة ٣٣٧. وانظر كتاب (الحمزة بن عبد المطلب) ص ٤٣ - ٦١.

(٢) تابع المصدر السابق، من الصفحة ٣٣٨ إلى نهاية الكتاب الصفحة ٣٥٦.

ارتجزت عمات النبي ﷺ وعلى مقدمتهنّ السيدة صفية بأحسن الأشعار وأطيب القصائد بهذه المناسبة البهيجة..

ولا بد من القول في ختام الموضوع بأن غرضنا في الإسهاب في سرد تفاصيل قصة زواج النبي ﷺ من السيدة خديجة لم يكن من جانبنا، إلا لكشف ما فيها من حلقات مهمة، وأدوار مشرفة تخص مواقف صفية بهذا الحديث الجليل، بشكل واضح من البداية إلى النهاية..

موقف صفية من الدعوة الإسلامية

يظهر من خلال ما أودع الله في خفايا شخصية صفية من مناقب وخصائل نبيلة وطيبة أنها تلقت نبأ نزول الوحي على ابن أخيها محمد بن عبد الله ﷺ بكل فرح وسرور وابتهاج وافتخار.. ويتبين لنا ذلك من خلال دراسة حلقات سيرتها التي تؤشر إلى علامة الخير، دائمًا، وذلك بعدم تسجيل أية سلبية عليها أو تقصيرها في موقف من مواقف الحياة لا في الجاهلية ولا في الإسلام..

وللتأكيد على صحة كلامنا، فإن إسلام الزبير بن العوام وهو ابن صفية في أول أيام الدعوة، وهي أيام حرجة وحاسمة، لم يذكر التاريخ شيئًا حول ممانعة أو معارضة صفية لإسلامه، فهذه علامة صحيحة على سلامة موقف صفية من صاحب الدعوة الإسلامية ابن أخيها محمد بن عبد الله ﷺ، وسلامة موقفها أيضًا من إسلام ابنها الزبير، التي تبدو وكأنها ربتها لمثل هذه الأيام العظيمة المليئة بالبطولات والأمجاد..

طرقت أسماع صفية بتتابع نزول الوحي على محمد ﷺ بعد الانصراف من الغار إلى بيته، وعرفت أن محمدًا ﷺ تهيأ وبأمر السماء القيام بنشر الدعوة والعمل على استئصال الشرك والوثنية.. ثم علمت أن محمدًا ﷺ قام بتوجيه الدعوة، فآمنت به زوجته خديجة وصديقه الصدوق أبو بكر وابن عمه علي بن أبي طالب وزيد بن حارثة..

ومما يجدر بنا ذكره هو أن أبو بكر الصديق، كان عين من أعيان قريش، وكان كريم الخلق، عالمًا بالأنساب، لطيف المعشر، لا يشرب الخمر في الجاهلية ولم يعبد الأصنام، وكان صديقًا للرسول ﷺ.. وبواسطته دخل الزبير بن العوام (ابن صفية) إلى الإسلام.. هو ومجموعة أخرى من الشباب كانوا أصدقاء لأبي بكر..

فما لبث أبو بكر أن أخذ يدعو إلى الإسلام أصدقاءه هؤلاء الذين كان لهم قدم صدق وسابقة خير.. وبذلك سماهم الله تعالى (السابقين الأولين)، وذلك دلالة على ما لهم عند الله من درجة عليا، ومنزلة سامية، وأشهر من انضم إلى قافلة الإسلام بواسطة أبي بكر: عثمان بن عفان.. والزبير بن العوام[1]، وكان عمر الزبير حين أسلم خمس عشرة سنة، [وهو ابن صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول ﷺ]، ولما عرف عمه بإسلامه بالغ في تعذيبه، حتى كان يلفه في حصير ويرسل عليه الدخان ليختنق حتى يعود إلى دين آبائه، فما يزيده إلا ثباتًا وصبرًا وقوة وتمسكًا شديدًا بالإسلام..

وأما موقف أمه صفية من إسلامه فلم يرد عنها شيء من الاعتراض أو التشنج، ويبدو أنها كانت راضية مرضية، ما دام الأمر يتعلق بمحمد ﷺ، إذ أنها كانت تحب محمدًا بن عبد الله إلى حد يفوق الحصر.. وكانت تعلق آمالًا كبيرة في شخص محمد ﷺ لتجديد أمجاد الآباء والأجداد.. وكان محمدًا ﷺ أخا عمه حمزة في الرضاعة، وحمزة شقيق صفية.. فهو ابن أخيها عبد الله، وأخو أخيها حمزة في الرضاعة.

ولاستكمال الإشارة إلى تاريخ الدعوة في الأيام الأولى لا بد أن ننوه إلى من أسلم أيضًا مع الزبير بواسطة أبي بكر الصديق إذ يذكر التاريخ، شباب آخرين منهم: سعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمٰن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وأبا عبيدة عامر بن الجراح... وهؤلاء كانوا أسبق الناس إلى الإسلام.. ثم دخل الإسلام بعد ذلك آخرين.. واستمرت الدعوة سرًا ثلاث سنين وكان الرسول ﷺ والمسلمون الأوائل في هذه المدة يجتمعون سرًا للعبادة وتعلم القرآن في دار الأرقم المخزومي.. وعندما علمت قريش بأخبارهم قاومتهم بشدة وقساواة، وأثناء ذلك أسلم حمزة ﷺ وعمر بن الخطاب ﷺ، وقد قويت عزيمة المسلمين بهما.. وبعد ذلك دخلت الدعوة الإسلامية في المرحلة العلنية.. حيث أخذ الرسول ﷺ بتنفيذ أمر ربه ودعوة الناس علنًا إلى عبادة الله وترك الأصنام.. فاستجاب منهم عددًا وامتنع آخرون.. وأخذ المشركون بمقاومة الدعوة بشتى

---

(١) عن كيفية دخول الزبير بن العوام إلى الإسلام وما عاناه وقاساه راجع كتاب (سيرة الزبير بن العوام ودوره في معارك التحرير العربية والإسلامية) تأليف جميل إبراهيم حبيب، بيروت ١٩٨٦ م.

الوسائل.. وحاولوا أن يكسبوا أبو طالب إلى جانبهم للتأثير على محمد ﷺ بترك الدعوة، لكن أبو طالب رفض طلبهم. ثم صعدوا من تعذيبهم وإيذائهم للمسلمين، وكان الرسول ﷺ بدوره يحثهم على الصبر ويعدهم بالنصر من الله.. وقد أشار الرسول ﷺ إلى قسم منهم بالهجرة إلى الحبشة والإقامة فيها، لفترة محدودة.. وكان الزبير بن العوام ﷺ أحد من هاجر إلى هناك بأمر الرسول ﷺ.. ويبدو أن صفية لم تمانع ولم تعارض، بل يبدو أنها شجعته وقوّت من عزيمته وشحذت من همته.. فسافر الزبير ﷺ مع المهاجرين وهو يودع الرسول ﷺ والمسلمين وأمه صفية وإخوته، وهم بدورهم بالمقابل أيضًا يودعونه ويودعون الباقين بالخير والتمنيات الطيبة.. والأشواق الحارة، والدعوات القلبية بسلامة الإقامة، والعودة، إلى الأهل والأقرباء والوطن من جديد ولمّ الشمل بالخير والسرور.

وهكذا نجد أن صفية كان تفتخر ببطولات الزبير الفردية في مكة لصالح الدعوة الإسلامية، وكما بدا لنا أيضًا أنها كانت تشجعه في الوقوف إلى جانب ابن خاله محمد ﷺ مهما بلغت التضحيات، سواء بترخيص الروح أو بالمال أو بترك الوطن... وكان الزبير الوحيد من بني أسد والوحيد من أبناء عمات الرسول ﷺ من المهاجرين، وقد أشرنا إلى أن صفية ودَّعته حين هجرته ودعت له بالخير وأوصته خيرًا... وتأتي الأيام المقبلة وإذا بالزبير بن العوام يعود من الحبشة.. فكم كانت فرحة الرسول ﷺ والمسلمين وكذلك فرحة صفية أم الزبير عندما عاد الزبير وهو يؤدي واجبه في طاعة لله ورسوله.. ومن هنا نستنتج أن صفية ﷺ آمنت بالدعوة منذ وقت مبكر جدًا ولربما أنها آمنت بعد خديجة وبناتها.

مشاركة صفية لحصار قريش لبني هاشم

بعد مصاولات ومجاولات ومحاولات فاشلة من الكفار ضد النبي ﷺ والمسلمين، لجأوا إلى أسلوب آخر وهو الإجماع على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب رجالًا ونساءً [بما فيهم صفية عمة النبي ﷺ].. فلا يبيعونهم ولا يشترون منهم ولا يخالطوهم، وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في الكعبة المشرفة...

واعتزل بنو هاشم في وادٍ يقع في شرقي مكة المكرمة يسمى (شعب أبي طالب).. وكانت تلك الأيام قاسية على المسلمين.. ولكن على الرغم من هذه

المقاطعة فإن عددًا من أقرباء النبي ﷺ والمسلمين كانوا يقدمون لهم المساعدة والعون سرًا علاوة على أن قسمًا من المشركين لم يكونوا راضين عن هذه المعاملة الغير إنسانية. . ودامت هذه الحالة ثلاث سنوات. .

وبعد انتهاء المقاطعة بفترة وجيزة فقد النبي ﷺ زوجته السيدة خديجة وعمه أبو طالب، فتأثر لوفاتهما كثيرًا. . وتأثرت صفية أيضًا بذلك. واستمر الرسول ﷺ ماضيًا في نشر الدعوة الإسلامية غير مبالٍ بما سيلحقه به الكفار من أذى وعناء، وذلك لوثوقه بأن الله مع الصابرين. .

ورغم أن صفية لم يذكر التاريخ إسلامها[1] في ذلك الوقت، إلا أنها كانت كأخيها أبو طالب تؤيد الرسول ﷺ والمسلمين، ولا تفارقهم، وتتحمل كافة الأضرار والتبعات التي سيلحقها الكفار بالمسلمين. . وهكذا يبدو أنها دخلت مع النبي ﷺ وبني هاشم والمسلمين المحبس أو الحصار المجحف الذي فرضه الكفار عليهم حيث قضت معهم ثلاث سنوات مليئة بالمرارة والشدة والجوع. . وشاركتهم المصائب والآلام والأوضار. .

ولتوثيق كلامنا، نسوق الصور الخبرية التالية من كتاب السير والمغازي لابن إسحٰق حيث نلاحظ من خلالها الجهد الذي عمه المسلمين وبني هاشم رجالًا ونساءً كبارًا وصغارًا، والشدة التي أصابتهم. . وكانت صفية أحد هؤلاء الرهط المبارك الذي نالهم هذا البلاء وهذا العناء. . وقد قالت في ذلك قصيدة خالدة وصلتنا مقاطع منها سنثبتها في معرض الكلام عن كيفية الحصار جملة وتفصيلًا. .

ذكر ابن إسحٰق في باب (ما نال أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء والجهد). . .[2]:

ثم إن قريشًا مشوا إلى أبي طالب تارة أخرىٰ فكلموه، وقالوا: ما نحن يا أبا طالب، وإن كنت فينا ذا منزلة بسنك وشرفك وموضعك، بتاركي ابن أخيك على هذا حتى تهلكه أو يكف عنا ما قد ظهر بيننا من شتم آلهتنا، وسبّ آبائنا، وعيب ديننا، فإن شئت فاجمع لحربنا، وإن شئت فدع، فقد أعذرنا إليك، وطلبنا

(١) يبدو من سياق الأحداث أن صفية كانت من المسلمات الأوائل ويظهر أنها آمنت منذ أول وهلة.
(٢) ج ٣ ص ١٥٤ ـ ١٦٧ (السير والمغازي).

التخلص من حربك وعداوتك فكل ما تظن أن ذلك مخلصًا، فانظر في أمرك، ثم اقض إلينا قضاك.

نا أحمد، نا يونس عن ابن إسحٰق قال: حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حدث أن قريشًا حين قالت لأبي طالب هذه المقالة بعث إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا ابن أخي إن قومك قد جاءوني فقالوا: كذا وكذا، للذي قالوا له، وآذوني قبل، فابق عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت، واكنف عن قومك ما يكرهون من قولك هذا الذي فرق بيننا وبينهم، فظن رسول الله ﷺ أنه قدا[1] لعمه فيه بداء، وأنه خاذله ومسلمه، وضعف عن نصرته والقيام معه، فقال رسول الله ﷺ: يا عم لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت الأمر حتى يظهره الله أو أصلك في طلبه، ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى، فلما ولى قال له - حين رأى ما بلغ الأمر برسول الله ﷺ: أقبل يا ابن أخي، فأقبل عليه، فقال: امضِ على أمرك وافعل ما أحببت، فوالله لا نسلّمك بشيء أبدًا...

نا يونس عن طلحة بن يحيىٰ بن طلحة بن عبيد الله عن موسى بن طلحة قال: أخبرني عقيل بن أبي طالب - ﷺ - قال: جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا: إنّ ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا، فانهه عنا..!! فقال: يا عقيل انطلق فائتيني بمحمد ﷺ! فانطلقت إليه فاستخرجته من خسيس[2]، يقول بيت صغير، فجاء به في الظهيرة في شدة الحر، فجعل يطلب الفيء يمشي فيه من شدة الحر الرحَض[3]، فلما أتاهم قال أبو طالب: إن بني عمك هؤلاء قد زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانته عن أذاهم...! فحلق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء فقال: أترون هذه الشمس؟ قالوا: نعم، قال: فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة... فقال أبو طالب: والله ما كذبنا ابن أخي فارجعوا..

---

(١) كذا ورد في النسخة المطبوعة من كتاب السير والمغازي لابن إسحٰق (ج ٣ ص ١٥٤ السطر(١٢) وفي السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الثاني، ص ٢٦٦ «أنه قد بدا لعمه فيه بداء» والبداء: اسم من بدا، يريد: ظهر له.

(٢) الخسيس: بيت الأسد، انظر كتاب التلخيص في أسماء الأشياء ٧٢٨/٢..

(٣) رحض الرجل: عرق حتى كأنه غسل جسده..

نا أحمد نا يونس عن ابن إسحٰق: ثم قال أبو طالب من شعرٍ قاله حين أجمع لذلك من نصرة رسول الله ﷺ، والدفاع عنه على ما كان من عداوة قومه وفراقهم له:

واللهِ لن يصلوا إليه بجمعهم ... حتى أوسد في التراب دفينا
امضي لأمرك ما عليك غضاضة ... وابشر وقر بِذاك منك عيونا
ودعوتني وعلمت أنك ناصح ... فلقد صدقت وكنت قديمًا أمينا
وعرضت دينًا قد عرفت بأنه ... من خير أديان البر دينا
لولا الملامة أو حذاري سَبّة ... لوجدتني سمحًا لذلك مبينا

فلما قالت قريش: لقد سفه أحلامنا، وعاب ديننا، وسب آباءنا فوالله لا نقر بهذا أبدًا، وقام أبو طالب دون رسول الله ﷺ، وكان أحب الناس إليه، فشمر في شأنه، ونادى قومه، قال قصيدة تعوذ فيها منهم، وبأذاهم في آخرها، فقال:

لما رأيت القوم لا وُدّ بينهم ... وقد قطعوا كل العرى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى ... وقد طاوعوا أمر العدو المزايل
وقد حالفوا قومًا علينا أظنة ... يعطون غيظًا خلفنا بالأنامل
صبرت لهم نفسي بصفراء[1] سمحة ... وابيض غضب من سيوف المقاول
وأحضرت عند البيت رهطي وأسرتي ... وأمسكت من أترابه بالوصائل
عكوفًا معًا مستقبلين وناره ... لدى حيث يقضي حلفه كل نافل
وحيث ينيخ الأشعريون ركابهم ... بمفضى السيول[2] ونائل

نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحٰق قال:

فلما مضى رسول الله ﷺ على الذي بعث به، وقامت بنو هاشم، وبنو المطلب دونه، وأبو أن يسلموه، وهم من خلافه على مثل ما قومهم عليه، إلا أنهم أنفوا أن يستذلوا، ويسلموا أخاهم لمن فارقه من قومه، فلما فعلت ذلك بنو هاشم، وبنو المطلب، وعرفت قريش أنه لا سبيل إلى محمد ﷺ معهم، اجتمعوا

(١) وفي نسخة أخرىٰ: بسمراء...
(٢) وفي نسخة: إساف، ومن أجل ونائلة، انظر الروض ١/ ١٠٥.

على أن يكتبوا فيما بينهم على بني هاشم وبني المطلب ألا يناكحوهم ولا ينكحوا إليهم، ولا يبايعونهم ولا يبتاعون منهم، فكتبوا صحيفة في ذلك، وكتبت في الصحيفة عكرمة بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، وعلقوها بالكعبة، ثم عدوا على من أسلم فأوثقوهم، وآذوهم، واشتد البلاء عليهم، وعظمت الفتنة فيهم وزلزلوا زلزالًا شديدًا، فخرج أبو لهب عدو الله عزّ وجل يظاهر عليهم قريش، وقال: قد نصرت اللات والعزى يا معشر قريش، فأنزل الله عز وجل: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ [المَسَد: الآية ١] إلى آخرها. [وصرخت صفية في وجه زعماء قريش الذين فرضوا الحصار الظالم، فقالت قصيدة تاريخية يذكر فيها مناقب بني هاشم وفضلهم وأمجادهم]، وفي ذلك جاء في (السير والمغازي)[١]:

نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحٰق قال:

وقالت صفية بنت عبد المطلب:

ألا من مبلغ عني قريشًا ... ففيم الأمر فينا والإمار
لنا الأمر المقدم قد علمتم ... ولم توقد لنا بالغدر نار
مجازيل العطا إذا وهبنا ... وأيسار إذا ابتغى اليسار
وكل مناقب الخيرات فينا ... وبعض الأمر منقصة وعار
فلا والعاديات غداه جمع ... بأيديها إذا سطع الغبار
لنصطبرن لأمر الله حتى ... يبين ربنا أين القرار

وقال أبو طالب:

ألا أبلغا عني على ذات نأيها ... لؤيًا وخصا من لؤي بني كعب
ألم تعلموا أنا وجدنا محمدًا ... نبيًا كموسى خط في أول الكتب
وأن عليه في العباد محبة ... ولا خير فيمن خصّه الله بالحب
وأنّ الذي أضفتم في كتابكم ... لكم كائن نحسًا كراغبة الساقب[٢]
أفيقوا أفيقوا قبل أن تحفر الثرى ... ويصبح من لم يجن ذنبًا كذي الذنب
ولا تتبعوا أمر الغواة وتقطعوا ... أباصرنا بعد الودة والقرب

(١) راجع ج ٣، ص ١٥٦ (السير والمغازي) لابن إسحٰق.

(٢) الساقب: ولد الناقة..

وتستجلبوا حربًا عوانًا وربما أمر على من ذاقه حلب الحرب
ولسنا ورب البيت نسلم أحمدًا على الحال من عض الزمان ولا كرب
أليس أبونا هاشم شد أزره وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب
ولسنا نمل الحرب حتى تملنا ولا نتشكى ما ينوب من النكب
ولكننا أهل الحفاظ والنُهى إذا طار أرواح الكماة من الرعب

وقال أبو طالب:

ألا أبلغا عني لؤيًا رسالة بحق وما تغني رسالة مرسل
بني عمنا الأدنين تيمًا نخصهم وإخوتنا من عبد شمس ونوفل
أظاهرتم قومًا علينا ولاية وأمر غوي من غواة وجُهل
يقولون إن قد قتلنا محمدًا أقرت نواصي هاشم بالتذلل
كذبتم ورب الهدي[1] تدمى نحورها بمكة والركن العتيق المقبل
تناولونه أو تعطلون قتله صوارم تغري كل عظم ومفصل
وتدعو بويل أنتم إن ظلمتم مقابله في يوم أغر محجل
فمهلًا ولما تنجح الحرب بكرها ويأتي تمامًا أو بآخر معجل
وأنا متى ما نحرها بسيوفنا تجلجل[2] وتعرك من نشا بكلكل
ويعلو ربيع الأبطحين محمد على ربوة من رأس عنقاء عيكل[3]
ويأوي إليها هاشم إنّ هاشمًا عرانين كعب آخر بعد أوّل
فإن كنتم ترجون قتل محمد فروموا بما جمعتم نقل يَذْبَلِ
فإنّا سنمنعه بكل طمرة[4] وذي ميعة نهد المراكل هيكل
وكل رديني طمى كعوبة وعضب[5] كما ماض الغمامة مفصل
بأيمان شم من ذوابة هاشم مغاوير بالأبطال في كلّ محفل

(١) الهدي: ما يهدى إلى البيت الحرام من النعم لتنحر.
(٢) وفي نسخة: تخلخل.
(٣) العنقاء: طائر أسطوري عند العرب، وسموه: عنقاء مغرب، والعيكل: ظهر الكثيب أو العظيم من الرمال.
(٤) الطمرة: الفرس الجواد.
(٥) العضب: الحسام القاطع.

نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحٰق قال: فلما سمعت قريش بذلك، فانطلق بهم أبو طالب فقاموا بين أستار الكعبة، فدعوا الله على ظلم قومهم لهم، وفي قَطيعتهم أرحامهم واجتماعهم على محاربتهم، وبتأولهم سفك دمائهم، . . فقال أبو طالب: اللهم إنّ أبىٰ قومنا إلا النصر علينا، فعجّل نصرنا، وحل بينهم وبين قتل ابن أخي، ثم أقبل إلى جمع قريش وهم ينظرون إليه، وإلى أصحابه، فقال أبو طالب: ندعو برب هذا البيت على القاطع المنتهك للمحارم، والله لتنتهن عن الذين تريدون، أو لينزلن الله بكم في قطيعتنا بعض الذي تكرهون، فأجابوه: إنكم يا بني عبد المطلب لا صلح بيننا وبينكم ولا رحم إلا على قتل هذا الصبي السفيه.

ثم عمد أبو طالب فأدخل الشعب ابن أخيه وبني أبيه ومَن اتبعهم، من بين مؤمن دخل لنصرة الله، ونصرة رسول الله ﷺ، وبين مشرك يحمى، فدخلوا شعبهم، وهو شعب في ناحية من مكة، فلما قدم ـ عمرو بن العاص ـ وعبد الله بن أبي ربيعة إلى قريش(١)، وأخبروهم بالذي قال النجاشي لمحمد ﷺ وأصحابه، اشتد وجدهم، وآذوا النبي ﷺ وأصحابه أذىً شديدًا وضربوهم في كل طريق وحصروهم في شعبهم وقطعوا عنهم المادة من الأسواق، فلم يدعوا أحدًا من الناس يُدخل عليهم طعامًا ولا شيئًا ممن يرفق بهم، وكانوا يخرجون من الشعب إلى الموسم، وكانت قريش تبادرهم إلى الأسواق فيشترونها ويغلونها عليهم، ونادى منادي الوليد بن المغيرة في قريش: أيّما رجل وجدتموه عند طعام يشتريه فزيدوا عليه: . .

نا يونس عن عيسى بن عبد الله التميمي عن الربيع بن أنس قال: نزلت في الوليد بن المغيرة: «عتل بعد ذلك زنيم»(٢) قال: فاحش مع ذلك لئيم.

نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحٰق في حديثه عن الوليد: فمن رأيتموه عند طعام يشتريه فزيدوا عليه، وحولوا بينهم وبينه، ومن لم يكن عنده نقد فليشترِ وعليّ النقد، ففعلوا ذلك ثلاث سنين حتى بلغ القوم الجهد الشديد، وحتى سمعوا أصوات صبيانهم يتضاغون من وراء الشعب، وكان المشركون يكرهون ما فيه بنو

---

(١) وقد أرسلتها قريش إلى الحبشة، لإفساد قلب النجاشي على المهاجرين المستظلين بظله، ولكنهما فشلا ورجعا خائبين. .

(٢) القرآن الكريم: سورة القلم، الآية: ١٣.

هاشم من البلاء، حتى كره عامة قريش ما أصاب بني هاشم، وأظهروا كراهيتهم لصحيفتهم القاطعة الظالمة التي تعاهدوا فيها على محمد ﷺ ورهطه، وحتى أراد رجال منهم أن يبرءوا منها، وكان أبو طالب يخاف أن يغتالوا رسول الله ﷺ ليلًا أو سرًا، فكان رسول الله ﷺ إذ أخذ مضجعه أو رقد بعثه أبو طالب عن فراشه وجعله بينه وبين بنيه خشية أن يقتلوه، وتصيح قريش فيسمعوا من الليل أصوات بني هاشم الذين في الشعب يتضاغون من الجوع، فإذا أصبحوا جلسوا عند الكعبة، فيسأل بعضهم بعضًا، فيقول الرجل لصاحبه: كيف بات أهلك البارحة؟ فيقول: بخير.. فيقول: لكن إخوانكم هؤلاء الذين في الشعب بات صبيانهم يتضاغون من الجوع حتى أصبحوا.. فمنهم من يعجبه ما يلقى محمد ﷺ ورهطه، ومنهم من يكره ذلك.. فقال أبو طالب، وهو يذكر ما طلبوا من محمد ﷺ، وما حشدوهم في كل موسم يمنعونهم أن يبتاعوا بعض ما يصلحهم، وذكر في الشعر:

ألا من لهمٍ آخر الليل معتم ... طواني وأخرى النجم لم يتقحم
طواني وقد نامت عيون كثيرة ... وسائر أخرى ساهر لم يُنوم
لأحلام أقوام أرادوا محمدًا ... بسوء ومن لا يتقي الظلم يظلم
سعوا سفهًا واقتادوهم سوء رأ ... يهم على قائل من رأيهم غير محكم
رجا أمور لم ينالوا نظامها ... وإن حشدوا في كل نفر وموسم
يرجون أن نسخا بقتل محمد ... ولم تختضب سمر العوالي من الدم
يرجون منا خطة دون نيلها ... ضراب وطعن بالوشيج المقوم
كربتم وبيت الله لا تقتلونه ... جماجم تلقى بالحطيم وزمزم
وتقطع أرحام وتنسى حليلة ... حليلها ونغشًا محرمًا بعد محرم
وينهض قوم في الدروع إليكم ... يذبون عن أحسابهم كل مجرم

نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحٰق: فأقامت قريش على ذلك من أمرهم في بني هاشم وبني المطلب سنتين أو ثلاثًا، [وكانت صفية من ضمنهم](١)، حتى جهد القوم جهدًا شديدًا لا يصل إليهم شيئًا إلا سرًا، أو مستخفًا ممن أراد صلتهم

---

(١) بين القوسين إضافة للتوضيح.

من قريش، فبلغني ـ والقول على لسان الواقدي ـ أن حكيم بن حزام خرج يومًا ومعه إنسان يحمل طعامًا إلى عمته خديجة ابنة خويلد، وهي تحت رسول الله ﷺ ومعه في الشعب، إذ لقيه أبو جهل، فقال: تذهب بالطعام إلى بني هاشم، والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك عند قريش، فقال له البختري بن هاشم بن الحارث بن أسد: تمنعه أن يرسل إلى عمته بطعام كان لها عنده، فأبى أبو جهل أن يدعه، فقام إليه أبو البختري يساق بعير فشجه ووطئه وطئًا شديدًا، وحمزة بن عبد المطلب قريبًا يرى ذلك وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه فيشمتوا بهم فقال أبو البختري بن هاشم في ذلك:

ذق يا أبا جهل لقيت غمّا   كذلك الجهل يكون ذما
سوف ترى عودي إن ألما   كذلك اللوم يعود ذما
تعلم أنا نفرج المهما   ونمنع الأبلج أن يطما

نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحٰق قال: ثم إن الله عز وجل برحمته أرسل على صحيفة قريش التي كتبوا فيها تظاهرهم على بني هاشم، الأرضه، فلم تدع فيها اسم هو لله عز وجل إلا أكلته، وبقي فيها الظلم والقطيعة والبهتان، فأخبر الله عز وجل بذلك رسول الله ﷺ، فأخبر أبا طالب، فقال أبو طالب: يا ابن أخي من حدثك هذا، وليس يدخل إلينا أحد ولا تخرج أنت إلى أحد، ولست في نفسي من أهل الكذب، فقال له رسول الله ﷺ: «أضرني ربي بهذا..».

فقال له عمه: إن ربك لحق، وأنا أشهد أنك صادق، فجمع أبو طالب رهطه ولم يخبرهم بما أخبره به رسول الله ﷺ كراهية أن يفشوا ذلك الخبر فيبلغ المشركين، فيحتالوا للصحيفة الخبث والمكر.. فانطلق أبو طالب ورهطه حتى دخلوا المسجد، والمشركون من قريش في ظل الكعبة، فلما أبصروه تباشروا به، وظنوا أن الحصر والبلاء حملهم على أن يدفعوا إليهم رسول الله ﷺ فيقتلوه، فلما انتهى إليهم أبو طالب ورهطه رحبوا بهم وقالوا: قد آن لك أن تطيب نفسك عن قتل رجل في قتله صلاحكم وجماعتكم، وفي حياته فرقتكم وفسادكم؛ فقال أبو طالب: قد جئتكم في أمر لعله يكون فيه صلاح وجماعة فاقبلوا ذلك منا، هلمّوا صحيفتكم التي فيها تظاهركم علينا، فجاءوا بها، ولا يشكون إلا أنهم سيدفعون رسول الله ﷺ إليهم إذا نشروها، فلما جاءوا بصحيفتهم قال أبو طالب: صحيفتكم بيني وبينكم وأن ابن أخي قد خبرني ـ ولم يكذبني ـ إن الله عزّ وجل قد بعث على

صحيفتكم الأرضة، فلم تدع لله فيها اسمًا إلا أكلته وبقي فيها الظلم والقطيعة والبهتان، فإن كان كاذبًا فلكم علي أن أدفعه إليكم تقتلونه، وإن كان صادقًا فهل ذلك ناهيكم عن تظاهركم علينا؟ فأخذ عليهم المواثيق، وأخذوا عليه، فلما نشروها فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ، وكانوا هم بالغدر أولى منهم، واستبشر أبو طالب وأصحابه، وقالوا: أينا أولى بالسحر والقطيعة والبهتان؟ فقال المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، وهشام بن عمرو، أخو عامر بن لؤي بن حارثة، فقالوا: نحن براء من هذه الصحيفة القاطعة العادية الظالمة، ولن نمالىء أحدًا في فساد أنفسنا وأشرافنا، وتتابع على ذلك ناس من أشراف قريش، فخرج أقوام من شعبهم وقد أصابهم الجهد الشديد، فقال أبو طالب في ذلك من أمر محمد ﷺ وما أرادوا من قتله:

تطاول ليلي بهم وصب ... ودمع كسح السقاء السرب
للعب قصي بأحلامها ... وهل يرجع الحلم بعد اللعب
ونفي قصي بني هاشم ... كنفي الطهاة لطاف الحب
وقول لأحمد أنت أمرؤ ... خلوف الحديث ضعيف النسب
وإن كان أحمد قد جاءهم ... بحق ولم يأتهم بالكذب
على أن إخوتنا وازروا ... بني هاشم وبني المطلب
هما إخوان كعظم اليمين ... أمرّ علينا كعقد الكرب
فيا لقصي ألم تخبروا بما ... قد مضى من شؤون العرب
فلا تمسكن بأيديكم ... بعد الأنوف بعجب الذنب
علام علام تلافيتم ... بأمر مُزاح وحلم عزب
ورمتم بأحمد ما رمتم ... على الأصرات وقرب النسب
فأنّى وما حج من راكب ... لكعبة مكة ذات الحجب
تنالون أحمدًا وتصطلوا ... طبات الرماح وحدّ القضب
وتغترفوا بين أبياتكم ... صدور العوالي وحبل عصب
تراهن من بني صافي السبيب ... قصير الحزام طويل اللبب
وجرداء كالطير سمحوجة ... طواها المقانع بعد الحلب
عليها صناديد من هاشم ... هم الأنجبون مع المنتجب

وقال أبو طالب في شأن الصحيفة حين رأى قومه لا يتناهون وقد رأوا فيها العلم من العلم ما رأوا:

ألا من لهم آخر الليل منصب ... وشعب العصا من قومك المتشعب
وحرب أبنيا من لؤي بن غالب ... متى ما تزاحمها الصحيفة تحرب
إذا ما مشير قام فيها بخطة ... الذؤابة ذنبًا وليس بمذنب
وما ذنب من يدعو إلى البر والتقى ... ولم يستطع أن يا رب الشعب يأرب
وقد جربوا فيما مضى غبّ أمرهم ... وما عالم أمرًا كمن لم يجرب
وقد كان في أمر الصحيفة عبرة ... متى ما يخبر غائب القوم يعجب
محى الله منها كفرهم وعقوقهم ... وما نقموا من باطل الحق معرب
فأصبح ما قالوا من الأمر باطلًا ... ومن يختلق ما ليس بالحق يكذب
وأمسى ابن عبد الله فينا مصدّقًا ... على سخط من قومنا غير معتب
فلا تحسبوا يا مسلمين محمدًا ... لذي عربة منا ولا متعرب
ستمنعه منا يد هاشمية ... مركبها في الناس خير مركب

فلما باداهم أبو طالب بالعداوة، وباداهم بالحرب، عدت قريش على من أسلم منهم فأوثقوه وآذوه واشتد البلاد عليهم، وعظمت الفتنة فيهم، وزلزلوا زلزالًا شديدًا، وعدت بنو جمح على عثمان بن مظعون، وفرّ أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم إلى أبي طالب ليمنعه، وكان خاله، فجاءت بنو مخزوم ليأخذوه، فمنعهم فقالوا: يا أبا طالب منعتنا ابن أخيك أتمنع منا ابن أخينا؟ فقال أبو طالب: أمنع ابن أختي مما أمنع ابن أخي. . . فقال أبو لهب ـ ولم يتكلم بكلام خير قط، ليس يومئذٍ ـ: صدق أبو طالب لا يسلمه إليكم، فطمع فيه أبو طالب حين سمع منه ما سمع، ورجا نصره والقيام معه، فقال شعرًا استجلبه بذلك:

وإن امرءًا أبو عُتيبة عمّه ... لفي روضة من أن يسلم المظالما
أقول له وأين مني[1] نصيحتي ... أبا مُعتب ثبت سوادك قائما

(١) وفي رواية أخرى: منني. .

ولا تقبلن الدهر ما عشت خطة   تسب بها لما هبطت المواسما
وحاربت فإن الحرب نصف ولن ترى   أخا الحرب يعطي الضيم إلا مسالما
وولي سبيل العجز غيرك منهم   فإنك لن تلحق على العجز لازما

وورد في السير والمغازي أيضًا:

نا أحمد: يونس عن ابن إسحٰق قال: ثم إنه قام في نقض الصحيفة التي تكاتبت قريش على بني هاشم، وبني المطلب، (ومنهم النساء بما فيهم السيدة صفية ﷺ)، نفر من قريش، ولم يبلُ أحد فيها بلاء أحسن بلاء من هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث بن حبيب بن خزيمة بن نصر بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لؤي، وذلك أنه كان ابن نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه، وكان عمرو ونضلة أخوين لأم، وكان هشام لبني هاشم واصلًا، وكان ذا شرف في قومه، وكان فيما بلغني يأتي بني المغيرة، وبني هاشم، وبني المطلب في الشعب ليلًا، وقد أوقر حملًا طعامًا، حتى إذا أقبله في الشعب حل خطامه من رأسه ثم ضرب جنبه، فدخل الشعب عليهم، ويأتي به وقد أوقره برًا أو بزاً[1] فيفعل به مثل ذلك.

ويضيف ابن إسحٰق: ثم إنه مشىٰ إلى زهير بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكانت أمه عاتكة بنت عبد الطلب (شقيقة صفية أم الزبير بن العوام).. فقال لزهير: قد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وإخوانك حيث قد علمت لا يباعون ولا يباع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم، ولا يأمنون ولا يؤمن عليهم، أما إلي أحلف بالله لو كان أقوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدًا، قال: ويحك فما أصنع أنا رجل واحد؟ قال: فقال: قد وجدت ثانيًا، قال: ومن هو؟ قال: أنا أقوم معك.. فقال له زهير: أبغنا ثالثًا! قال: وذهب إلى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، فقال له: يا مطعم قد رضيت أن تهلك بطن من بني عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق عليه، أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها سراعًا منكم، فقال: ويحك فما أصنع إنما أنا رجل واحد؟! فقال: قد وجدت ثانيًا، قال: فمن هو؟ قال: أنا، قال: فابغنا ذلك، قال: قد فعلت،

(١) كذا في الأصول، ولعل الأصح أن يكون: تمرًا.

قال: ومن هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، قال: فابغنا رابعًا يتكلم معنا، قال: فذهب إلى أبي البختري بن هشام فذكر قرابتهم وحقهم، فقال: هل من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم، المطعم بن عدي، وزهير بن أبي أمية، فقال: ابغنا خامسًا، فذهب إلى زُمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد فكلمه، وذكر له قرابتهم وحقهم، فقال له زمعة: هل معك على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحمد؟ فقال: نعم، ثم سمى له القوم، فتواعد عند خطم الجحون ليلًا بأعلى مكة، فاجتمعوا هناك وأجمعوا أمرهم، وتعاهدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها، فقال زهير: أنا أبدؤ فأكون أولكم.

فلما أصبحوا غدوا على أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية في حلة له فطاف بالبيت سبعًا، ثم أقبل على الناس يقول: يا أهل مكة أنأكل الطعام، ونشرب الشراب، ونلبس الثياب وبنو هاشم بنو المطلب هلكى لا يباعون ولا يباع[1] منهم ولا ينكحون ولا ينكح إليهم، والله لا أذوق طعامًا ولا شرابًا، حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة، فقال أبو جهل: كذبت والله ـ وهو في ناحية المسجد ـ لا تشق هذه الصحيفة، فقال زمعة بن الأسود: بل أنت والله أكذب، ما رضينا كتابها حين كُتبت، فقال أبو البختري: صدق زمعة بن الأسود، لا نرضى بما كتب فيها ولا تعرفه، فقال المطعم بن عدي صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله عزّ وجل منها ومما كتب فيها، وقال هشام بن عمرو مثل ما قالوا في نقضها وردها فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل تشوّر فيه ـ يعني بغير هذا المكان ـ وأبو طالب جالس في ناحية المسجد يرى ما يصنع القوم، ثم إن المطعم بن عدي قام إلى الصحيفة فشقها فوجد الأرضة قد أكلها «وفي رواية: أكلتها» إلا بسمك اللّهم، وكان الذي كتب الصحيفة منصور بن عكرمة ابن هشام بن عبد مناف بن عبد الدار فشلت يده فيما يزعمون، والله أعلم[2].

ويستمر ابن إسحٰق في الرواية فيقول: فلما مزقت، وبطل ما فيها قال أبو طالب في ذلك مما كان في أمر أولئك النفر في نقضها يمدحهم:

ألا هل أتى الأعداء رأفة ربنا ... على نأيهم والله بالناس أرود
فيخبرهم أن الصحيفة مزقت ... وأن كل ما لم يرضه الله مفسد

---

(١) وفي روايات أخرىٰ: يبتاع.

(٢) ج ٣ ص ١٦٧ وما قبلها (السير والمغازي) لابن إسحٰق.

تداعى لها إفك وسحر مجمع ولم يلف سحر آخر الدهر يصعد
تداعى لها من ليس فيها بقربة فطائرها في وسطها يتردد
ألم نك حقًا وقصة صيلمية ليقطع فيها ساعد ومقلد
ويظعن أهل ماكثون فيهربوا فرائصهم من خشية الموت ترعد[1]

وبموافقة الطرفين على نقض الصحيفة رجع المسلمون من جديد إلى ديارهم في مكة، وتركوا الشعب بعد أن قاسوا فيها أنواع المرارة والأهوال، ورجع الرسول ﷺ ورجال ونساء بني هاشم والمطلب، وكانت صفية من جملتهم، وكانت ذات عزيمة قوية، شديدة البأس، صابرة، مجاهدة، وأخذت من جديد تشحذ من هممها لتواصل المسيرة تحت راية رسول الله ﷺ.

بقاء صفية في مكة وهجرة المسلمين إلى المدينة

لم يغمض جفن المشركين بعد السماح للمسلمين بالخروج من شعب أبي طالب، وضاقوا بهم ذرعًا، فأخذوا يزيدون من تنكيلهم بالرسول ﷺ وأصحابه، وتعذيبهم وتأليمهم وشتمهم رجالًا ونساءً بلا تمييز، وبلا انقطاع..

ولما رأى الرسول ﷺ أن لا فائدة من البقاء في مكة أمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة المنورة، وأمر الرسول ﷺ في ليلة الهجرة مع صاحبه أبو بكر الصديق، ابن عمّه الإمام علي بن أبي طالب ﷺ أن ينام في فراشه في تلك الليلة المباركة، وذلك لإرجاع الأمانات وإرسال الودائع لأصحابها وأن يلتحق بعد ذلك بركب المهاجرين مع من بقي من النساء الكريمات الهاشميات، وهنّ الفواطم، فاطمة بنت محمد ﷺ وفاطمة بنت أسد، وفاطمة بنت حمزة... الخ.

وهكذا هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة مأمورًا[2] وبقيت صفية في مكة (أول الأمر) مع أخيها العباس بن عبد المطلب عين رسول الله على القوم الضالين، وكانت هي الآخر تشهد وتسمع [وقلبها مع محمد ﷺ].

(١) ينظر ج ٤ ص ١٦٧ (السير والمغازي) وج ٢ ص ١٢٤ (الروض الآنف) والسيرة النبوية لابن هشام حيث أن روايتها تتفاوت مع هذه طولًا ومعنًى.
(٢) ص ٥٥ وما بعدها (مجلة العربي) باختصار وتهذيب.

وتجدد حديث القرشيين عن محمد بعد هجرته، فإذا هم لا يعيبون دينه فحسب، بل يتحدثون عن تعاظم أمره في يثرب وانتشار دعوته، وتكاثر المؤمنين به حتى أعدوا قوة راحت تترصد عير قريش، وتتربص بها الدوائر، وتتحداها علانية ودون خوف..

وسادت أجواء مكة شائعات.. وتهامس القوم وجلين متحدثين بما يمكن أن ينزله بهم رجال محمد ﷺ من نكبات في أموالهم وقوافلهم...

وكما شغل محمد ﷺ مكة وهو فيها ينادي بدعوة الحق... كذلك شغل ساداتها وهو بعيد عنها بما يمكن أن ينزله بهم أن تعاظم أمره، وتزايد من اتبعوه..

كل هذا وصفية حيث هي، تسمع وتطرب، وتتمنىٰ أن يمتد بها العمر لتشهد نصرُ الله القريب[1]..

رؤيا صفية رضي الله عنها

تقول الكاتبة سنية قراعة: شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن ترى صفية بصيصًا من أضواء المجد القادم في رؤيا صادقة تبدت لها ذات ليلة، فرأت فيما يرى النائم مكة صامتة واجمة، يخيم عليها الحزن، وقد أقفرت نواديها... وإذا بفارس في الحديد والزرد، شاكي السلاح، يعلو الكعبة بجواده وهو يصيح: «اخرجوا إلى مصارعكم يا آل غدر» وانتبهت صفية من نومها، وقد أثارها ما رأت، وحيرتها رموز الرؤية الغامضة، فتحدثت بأمرها حتى شاعت في سوامر قريش، وتناقلها الناس جميعًا، حتى وصلت إلى مسامع أبي الحكم بن هشام أعدى أعداء رسول الله ﷺ، فثار وضج وغضب غضبة عجز عن كبح جماحها»[2]،.. ويخرج أبو جهل إلى العباس ليسخر من هذه الرؤيا، وصادف أن مرت قافلة أبو سفيان وكان رئيسها، قد وقعت في أيدي المسلمين[3] وتمضي الكاتبة فتقول: وطاشت عقول السفهاء، وتنادوا بالشر، وطالبوا بالانتقام، وعلا فيهم صوت أبي جهل يدعو

---

(١) ص ٥٥ (مجلة العربي) من مقال للأستاذة الكاتبة سنية قراعة تحت عنوان (مسلمات خالدات ـ صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها) (العربي: العدد ٧٨ مايو ١٩٦٥).

(٢) ص ٦٥ (مجلة العربي) العدد ٧٨ مايو ١٩٦٥.

(٣) ص ٥٦ (مجلة العربي) العدد ٧٨ مايو ١٩٦٥ ـ بتصرف ـ.

إلى الخروج لقتال المسلمين، وقد أثارته جرأتهم الأخيرة على تجارة أبي سفيان، وأمضّه أن يكون ما حدث فعلًا مقدمة تفسر غموض الرموز التي تبدت في الرؤيا لصفية بنت عبد المطلب، ذات ليلة..

وتقول: وانتظمت الخيل.. وتجمعت العشائر تلبي دعوة أبي جهل.. وفجأة والقوم يتنادون بالخروج للحرب.. وصل رسول أبي سفيان ليبلغ القرشيين أن تجارته قد سلمت وأنه أفلت من حصار المسلمين، وسيصل هو وعيره عما قليل[1]... (وبعد مداولات ومشاورات)، تقول السيدة كاتبة المقال: وقرت نفوس عقلاء القوم بما سمعوا، ودعوا إلى العودة وترك مغامرة الحرب والخروج إليها، ولكنه عزّ على أبي جهل أن يعود، وأقسم أن يخرج بالماجنين العابثين من قريش إلى ماء بدر، فيقيموا هناك ثلاثًا في لهو ومرح وشراب ظانين أنهم بهذا يرهبون المسلمين. وأطاع القوم على مضض، وخرجوا وهو على رأسهم وقد ظن أنه بذلك يرد على رؤيا صفية التي فسرها، بأنها كانت دعوة تثبيط وإرهاب لقريش حتى لا تعترض محمدًا في أمر دبرهم هذه، وعرفته عمته صفية، فأرادت أن تزرع الخوف في القلوب مقدمًا بالترويج لهذه الرؤيا حتى تسكت قريش على الإهانة، ويخشى فوارسها وسادتها أن يخرجوا إلى مصارعهم[2].. وحاصل المقال أن قريش سارت بقادتها بما فيهم أبو سفيان وأبو جهل، والتقوا ببدر وخسروا أمام المسلمين، فقتل من قتل وهرب من لاذ بالفرار (وخيّمت الكآبة، والصمت على السوامر اللاهية وتذكروا جميعًا رؤيا صفية وتمنوا في قرارات نفوسهم لو أنهم صدقوها وتفادوا النكبة ونكصوا على أعقابهم يوم نادى أبو جهل بالخروج إلى «بدر» ولم يتابعوه)[3].. لكن ماذا يفيد الندم بعد فوات الأوان، علمًا بأن أبو جهل كان على رأس المقتولين، وخسر الدنيا والآخرة، أما أبو سفيان ورهطه ممن نجوا فقد توجهوا إلى مكة وهم يجرون أذيال الخيبة..

هذه الصورة التاريخية سجلت بقلم السيدة سنية القراعية، ويبدو أنها توهمت فنسبت الرؤيا خطأ إلى صفية في حين أن الرؤيا هي لعاتكة بنت عبد المطلب التي

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) المصدر السابق نفسه ـ بتهذيب واختصار ـ.
(٣) يراجع المجلد الأول (ص ١٠٧ وما بعدها) للسيرة النبوية لابن هشام.

جاءت بأسلوب مغاير لأسلوب كاتبة المقال، وتفاصيل الرؤيا ونتائجها مذكورة في السيرة النبوية لابن هشام[1] [يراجع ذكر رؤيا عاتكة].

ومهما يكن من أمر وحتى لو كانت الرؤيا لعاتكة بنت عبد المطلب، وهي أخت صفية كما تعلم، فإن النتيجة التي أثارتها الرؤيا والتي قلبت الدنيا على رموز الكفر والضلال كانت عظيمة، فلا بد أن صفية كانت تحدث بالرؤيا على لسان أختها بين النساء لتقوي من عزيمة المسلمين وتفت في عضد الكفار، فهي وعاتكة من أسرة واحدة ومن ذرية عبد المطلب وهاشم، فالأمر إذًا يهمهم، ما دام يتعلق بالمسؤولية المشتركة وإقرار المصير، وهو خدمة الدعوة الإسلامية والإخلاص لدين ابن أخيهم محمد ﷺ، دين الوحدانية، والإقرار بالله خالقًا للكون لا يشاركه فيها أحدًا.

صفية تهاجر إلى المدينة

وهاجرت صفية فيمن هاجر من المسلمات إلى المدينة، وعاشت فيها سعيدة مكرمة في كنف ابن أخيها رسول الله ﷺ، ورعاية ابنها الزبير بن العوام ﷺ[2].. ويتبين من سياق كلام السيدة سنية قراعة، أن صفية تأخرت عن الهجرة بعض الوقت، وأنها وافت المدينة عقب انتهاء معركة بدر أو في أثنائها والله أعلم.

فجيعة صفية بمقتل حمزة في معركة أُحُد ومشاركتها في المعركة

نشبت هذه المعركة بين المسلمين بقيادة الرسول ﷺ، والمشركين من قريش يرأسهم أبو سفيان في ١١ شوال عام ٣ هـ (مارس ٦٢٤ م) قرب جبل أحد، وعرفت بغزوة أحد نسبة للجبل، وسبب المعركة أنّ مشركي قريش بزعامة أبي سفيان، بعد هزيمتهم في معركة بدر (١٧ رمضان ٢ هـ) اجتمعوا على الثأر لقتلى بدر، وعزموا لمحاربة المسلمين، وذلك اعتقادًا منهم لمحو آثار الهزيمة، وتحميل أبو سفيان نفقات الحرب على عاتقه، فخرج الرسول ﷺ في ٧٠٠ وقيل في ١٠٠٠ رجل، والتقىٰ بهم عند سفح جبل وهم في ٣٠٠٠ رجل وكان مع

(١) يراجع المجلد الأول (ص ١٠٧ وما بعدها) للسيرة النبوية لابن هشام.

(٢) ص ٥٦ (مجلة العربي) عن مقال للسيدة سنية قراعة باسم مسلمات خالدات (صفية بنت عبد المطلب)..

المشركين بعض نسائهم ومنهم هند بنت عتبة أتين لتشجيع المقاتلين[1]. وكان الرسول ﷺ حريصًا في تقسيم المسؤولية، وتنظيم الجيش على المعركة، وأكّد على الاحتفاظ بالمواقع وانتظار الإشارة منه، ووضع ٥٠ من الرماة على الجبل وحذّرهم بعدم النزول في كل الأحوال..

وتقابل الجيشان وحمِيَ وطيس الحرب واقتتل المسلمون قتالًا شديدًا، وكان النصر كما يتبين من جميع الروايات التاريخية محققًا للمسلمين لولا ميلان ونزول الرماة من الجبل، وبطبيعة الحال كان نزولهم خطًا عسكريًا محضًا أفسح للمشركين من احتلال مواقعهم، مما ساعدهم في إضعاف جيش المسلمين بعد ذلك، والجدير بالذكر أن الرسول حذّر الرماة قبل بدء المعركة بعدم مغادرة أماكنهم.

وكان من جراء هذا الخطأ العسكري الذي ارتكبته الرماة، أن انكشف المسلمون وأصاب منهم العدو، فكان يوم بلاء وتمحيص، وكادت الهزيمة تحيق بالمسلمين، ولكن قريش لم تلبث أن انسحبت بعد أن قُتل من رجالها ٢٣ مقابل ٧٠ شهيدًا، وفي رواية ٧٠٤ وجرح الرسول ﷺ نفسه، والشهداء من المسلمين فيهم حمزة عم النبي ﷺ، وشقيق السيدة صفية بنت عبد المطلب، ولكن المسلمين تمكنوا بعد ذلك من تجميع قواهم في الحال وملاحقة بعض فلولهم رغم ما أصابهم من جراح وخسارة في هذه المعركة[2]. وهكذا فإن قريشًا رجعت ولم تبلغ الغاية.

وقد حزنت صفية على حمزة كثيرًا، وبعد أنِ رأته وقد مثل به أبشع تمثيل، وترحمت عليه، ورثته، وأتت به بثوب ليكفن به..

وقد سلّطت السيدة سنية قراعة الضوء على موقف صفية ﷺ في معركة أحد من مقتل حمزة ﷺ فقالت:

(... وكانت قريش في تلك الآونة [قبل معركة أحد] تعد عدتها للثأر من هزيمة «بدر» حتى شاء لها الحقد وأرادت الضغينة أن تخرج في النهاية إلى جبل

(١) يراجع السير والمغازي لابن إسحق ج ٥ ص ٣٢١ وتاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٤٧، تاريخ خليفة ابن خياط ق ٢ ص ٢٩، وكتاب (الحمزة سيد الشهداء) ص ١٠٨ ـ ١٠٩ (ملخصًا).
(٢) انظر كتابنا (الحمزة بن عبد المطلب) ص ١١١ ـ ١١٢.

أحد تحت قيادة أبو سفيان). . . ثم ذكرت: وشهدت صفية بنت عبد المطلب غزوة «أحد» الرهيبة مع مجاهدات المسلمات أمثال نسيبة أم عمارة وغيرها. . وساعة ولّى المسلمون، وثبت نسيبة وغيرها من بواسل فرسان الله، كانت صفية ﷺ تخوض الصفوف والرمح في يدها، تضرب به صدور المشركين الكافرين [وتدفع الأذى عن رسول الله ﷺ]، وهي تصيح بالمسلمين الفارين:

ـ ويلكم. . . ويلكم. . . انهزمتم عن رسول الله ﷺ. . . ورأي محمد ﷺ عمته الباسلة، فتذكر فجيعتها الكبرىٰ في أخيها، عمّه أسد الله الحمزة بن عبد المطلب، وحزّ في نفسه أن تعلم صفية بما حدث لأخيها، وتعرف بأمر بشاعة مصرعه، الذي دبرته بالخيانة والغدر هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان. .

ووجد رسول الله ﷺ نفسه يدعو الزبير بن العوام ﷺ ويُسر إليه بأن يعود بأمه إلى المدينة خشية أن تعلم بما حدث من أمر مصرع الحمزة سيد الشهداء. . ﷺ. .

وفي الوقت الذي وقف فيه محمدًا ﷺ يرثي الحمزة ويبكيه، ويراه أكرم من ضمه الثرى، متمنيًا لو جعل مثواه، حواصل الطير، لولا خشيتُه أن تكون هذه سنة من بعده، . في هذا الوقت، كان الزبير بن العوام ﷺ يبلغ أمه رسالة رسول الله ﷺ إليها لتعود وتترك الميدان. .

وأنصتت صفية المؤمنة الباسلة إلى قول ولدها، وسكتت لحظة جمعت خلالها أنفاسها اللاهثة من حرّ القتال وقالت في إيمان:

ـ ولماذا أعود، وقد عرفت أنه مُثّل بأخي الحمزة. . وهذا والله عزّ وجل قليل. . وإني لراضية به. . ولقد احتسبته. . وإني لصابرة إن شاء الله. . .

وعاد الزبير إلى الرسول الكريم ﷺ ليخبره أن عمته قد علمت بمصرع أخيها، فأمره عليه الصلاة والسلام أن يتركها وشأنها ما دامت قد عرفت ما أراد محمد ﷺ أن يخفيها عنها ولو بعض الوقت[1]. .

(١) ص ٥٦ (مجلة العربي) العدد ٧٨ مايو ١٩٦٥ م.

(٢) المصدر السابق ص ٥٦ ـ ٥٧، اعتمادًا على روايات السيرة النبوية لابن إسحٰق وابن هشام. .

صفية أمام جثمان أخيها حمزة ﷺ

وجاءت صفية المحزونة إلى ميدان «أحد» ثابتة الجنان، قوية العقيدة، شديدة الإيمان بالله، ووقفت أمام جثمان الشهيد العظيم [حمزة ﷺ] وراحت تنظر إليه كمن تودعه، ثم صلت عليه واسترجعت واستغفرت له وقالت ترثيه:

دعا الله الحق ذو العرش دعوة ... إلى جنّة يحيا بها وسرور

فوالله لا أنساك ما هبت الصبا ... بكاءً وحزنًا محضري ومسيري

فيا ليت شلوي عند ذاك وأعظمي ... لدى أضبعٍ تعتادني ونسور

وبكت، فأبكت، ورقّ لها السامعون، وتذكروا لها موقفًا وقفته من قبل ترثي أباها عبد المطلب (سيد قريش وعظيم العرب) قائلة:

أرقت لصوت نائحة بليل ... على رجلٍ تقارعه الصعيد

[والقصيدة كتبناها في موضوع - رثاء صفية لأبيها - في الكتاب] [وبإمكان القارىء مراجعتها كرة أخرى للتأكد].

وعادت صفية بعد «أحد» [وإكمال دفن الشهداء] لتجد المدينة كلها قد استجابت لإشارة رسول الله ﷺ ساعة قال: «ولكن حمزة لا بواكي له».. وقد نسيت النساء كلهن ما حلّ برجالهن من الفواجع، ورحن يندبن الحمزة أسد الله ﷺ، فكان لها بينهن في تلك الآونة شأن عظيم في البكاء على أخيها والتفريج عن نفسها بإرسال الدموع[1].. الغزيرة الساجمة وفاءً منها لأخيها الحمزة ﷺ ودليلًا على اعتزازها به وتقديرها له، وكانت مكلومة الفؤاد، وفي غاية الحزن والألم.. ولكنها من جانب آخر علمت أن مكان حمزة ﷺ هو الجنّة.. وأن روحه صعدت إلى السماء العلىٰ..

وعن تصوير معركة أحد و(سياقًا مع هذا الصدد)[2]، وما حل بالمشركين من الخزي والعار، وما حصل للشهداء ومنهم (حمزة) شقيق السيدة صفية من منازل عالية في الجنان، قال حسان:

وقل إن يكن يوم بأحد يعدّه ... سفيه فإن الحق سوف يشيع

(١) المصدر السابق، - بتصرف - وإضافات..

(٢) بأحد تعلم المسلمون كيف يطيعون الرسول ﷺ فقد انتصروا أول الأمر ثم اندحروا لأنهم لم يلتزموا مواقعهم.

وقد ضاربت فيه بنو الأوس كلهم وكان لهم ذكر هناك رفيع
وحامى بنو النجار فيه وضاربوا وما كان منهم في اللقاء جزوع
وفوا، إذ كفرتم يا سُخين بربكم ولا يستوي عبدٌ عصا سميع
فإن تذكروا قتلى وحمزة فيهم قتيل ثوىٰ لله وهو مطيع
فإن جنان الخلد منزله بها وأمر الذي يقضي الأمور سريع
وقتلاكم في النار أفضل رزقهم حميم معًا في جوفها وضريع(١)

«كانت الأوس والخزرج قبل الإسلام على شقاق وحروب موصولة وبالإسلام اتحدتا في صفة واحدة: الأنصار، وفي سبيل الإسلام زالت الأحقاد، وحسان هنا يذكرنا بفضائل الأوس وبلاءهم في الجهاد، قبل فريقه وعشيرة بني النجار من الخزرج، وحسان هنا يعيّر هنا قريشًا بأكل «السخنية» وهي طعام يتخذ من تمر ودقيق وماء عرفت به قريش، وبه عيّرت. كما يعيرهم بقتلاهم في النار، فاخرًا بأن قتيل من المسلمين فهو شهيد في الجنة(٢) ومنهم بل وعلى رأسهم سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب - شقيق السيدة الهاشمية صفية بنت عبد المطلب -.

تحضير صفية لكفن حمزة ﷺ

فكما حفلت الكتب التاريخية بالأخبار الكثيرة عن حزن وبكاء الرسول ﷺ وصفية والمسلمين والمسلمات في يومها على حمزة ودفنه والصلاة عليه، كذلك استفاضت في الرواية عن تكفينه ﷺ . . . وأكدت على أن صفية ﷺ جاءت بثوبين لأجل ذلك(٣).

وعن عروة بن الزبير عن أبيه قال: لما كان يوم أحد أقبلت امرأة تسعىٰ حتى إذا كادت تشرف على القتلىٰ، قال: فكره رسول الله ﷺ أن تراهم، فقال: المرأة، المرأة!! قال الزبير: فتوسمت أنها أمي صفية، فخرجت أسعى إليها فأدركتها قبل أن تنتهي إلى القتلىٰ، قال: فلدمت في صدري وكانت امرأة جلدة، وقالت: إليك لا أم لك! فقلت إن رسول الله ﷺ عزم عليكِ، قال: فوقفت

(١) ديوان حسان بن ثابت، قافية الـ(ع).
(٢) ص ٧٧ من كتاب (حسان بن ثابت الالتزام) د. علي شلحة - بيروت ١٩٨٥ م، دار المدى للطباعة والنشر.
(٣) راجع ص ١٢٧ (الحمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء). . .

وأخرجت ثوبين معها، فقالت: هذان ثوبان جئت بهما بالثوبين ليكفن فيهما حمزة، فقد بلغني قتله، فكفّنوه بهما.. قال: فجئنا بالثوبين ليكفن فيهما حمزة، فإذا إلى جنبه رجل من الأنصار قتيل قد فُعل به كما فُعل بحمزة، قال: فوجدنا غضاضة وحياءً أن يكفن حمزة في ثوبين والأنصاري لا كفن له، فقلنا لحمزة ثوب وللأنصاري ثوب فقدرناهما وكان أحدهما أكبر من الآخر فأقرعت بينهما فكفنّا كل واحد منهما في الثوب الذي صار له، خرجه المخلص وصاحب الصفوة[1].

وعن عبد الرحمٰن بن عوف ﷺ، أنه أتى بطعام، وكان صائمًا فبكى، وقال: قُتل حمزة فلم يوجد ما يكفن فيه إلا ثوب واحد، وقد خشيت أن تكون عجلت لنا طيبًا تنافي حياتنا الدنيا، قال: وجعل يبكي، خرّجه أبو حاتم. وعن يحيىٰ بن أبي لبيبة عن جده قال: لما كان يوم أحد وقتل حمزة قال رسول الله ﷺ: من عنده كفن لحمزة؟ فقال رجل من الأنصار بأبي وأمي يا رسول الله عندي لأبي شقتان من شعر فدعا بهما رسول الله ﷺ فمدّهما على وجهه فبرزت رجلاه ومدهما على رجليه فبرز وجهه فمدهما على وجهه ﷺ وجعل على رجليه شيئًا من إذخر ثم قال: لقد كان حمزة مكتوبًا عند الله في السماء السابعة حمزة أسد الله وأسد رسوله، أخرجه ابن السري.

ويمكن أن يكون هذا في أول الأمر قبل مجيء صفية ثم جاءت صفية قبل دفنه، فكفن بما جاءت به من غير أن يكون بينهما تضادد والله أعلم[2].

ومهما يكن وجه الخلاف في رؤية كفنه ﷺ، فإن حمزة دفن مكفنًا، وأنه كفّن بالثوب الذي أتت به صفية ﷺ، وأن دفنه به هو الأصح والأرجح كما يبدو[3] والله أعلم.

---

(١) (شرح): توسمت: تفرستُ.
لدمت: ضربت ودفعت، وجلدة: أي قوية صابرة من الجلد.
وغضاضة: يجوز أن يكون من غضّ طرفه إذا أغمضه، وغضّ من صوته: إذا أنقصه أي الكفاف والانقباض، أو من قولهم: ما عليك في هذا الأمر غضاضة أي مذلة ومنقصة فكني به عن المجازية إذ يحصلان.
يراجع ذخائر العقبىٰ ص ١٩٣ ـ ١٩٤ وكتاب (الحمزة بن عبد المطلب) ص ١٢٧.

(٢) ذخائر العقبىٰ ص ١٩٣ ـ ١٩٤ و(الحمزة بن عبد المطلب) ١٢٧ ـ ١٢٨.

(٣) (الحمزة بن عبد المطلب) ص ١٢٨، تأليف جميل إبراهيم حبيب، بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٨٦ م.

شعر صفية في بكاء حمزة

قال ابن هشام: قال ابن إسحٰق: وقالت صفية بنت عبد المطلب تبكي أخاها حمزة بن عبد المطلب[1] يوم أحد:

أسائلة أصحاب أحد مخافة ... بنات أبي من أعجم وخبير

فقال الخبير إنّ حمزة قد ثوى ... وزير رسول الله خير وزير

دعاهُ إلٰه الحق ذو العرش دعوة ... إلى جنةٍ يحيا بها وسرور

فذلك ما كنّا نرجّى ونرتجي ... لحمزة يوم الحشر خير مصير

فوالله لا أَنساك ما هبّت الصبا ... بكاءً وحزنًا محضري ومسيري

على أسد الله الذي كان مِذْرَها ... يذود عن الإسلام كلُ كفور

فيا ليت شلوي عند ذاك وأعظمي ... لدى أضبعُ تعتادني ونسور

أقول وقد أعلى النعيّ عشيرتي ... جزى الله خيرًا من أخٍ ونصيرِ

وأضاف ابن هشام في نهاية نقله للقصيدة قائلًا:

وأنشدني بعض أهل العلم (بالشعر)[2] قولها:

«بكاءً وحزنًا محضري ومسيري»[3]

لكن ابن هشام، ذكر ذلك، دون أن يوضح شيئًا بعد ذلك، وانقطع عن الكلام واكتفى بذكر العبارة الشعرية فقط دون تعليق.

الشاعر كعب بن مالك
يحثّ صفية في البكاء على حمزة

وقال مالك يبكي حمزة[4]:

صفية قومي ولا تعجزي ... وبكّي النساء على حمزةِ

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام، القسم الثاني ص ١٦٧. و(الحمزة بن عبد المطلب) ص ١٧٩.

(٢) بين القوسين إضافة توضيحية من عندنا لإفادة القارىء.

(٣) راجع السيرة النبوية لابن هشام القسم الثاني ص ١٦٧. الطبقة الثانية ١٣٧٥/١٩٥٥/مصر، شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بالقاهرة.

(٤) راجع السيرة النبوية لابن هشام، القسم الثاني، ص ١٥٨.

ولا تسأمي أن تطيلي البكا | على أسد الله في الهزّةِ
فقد كان عزًا لأيتامنا | وليث الملاحم في البزّةِ
يريد بذاك رضا أحمدٍ | ورضوان ذي العرش والعزّةِ

قصة صفية مع اليهودي الغادر في وقعة الخندق

وحاصل غزوة الأحزاب أو الخندق هو أن قريش أرادت أن تقوم بحملة حاسمة (فاصلة) - هذه المرة - على المدينة فحشدت (١٠,٠٠٠) عشرة آلاف نفر، فتحصن الرسول ﷺ في المدينة وحفر خندقًا حواليها، وحاصره المشركون وحدثت مناوشات بينهم أبلى فيها سيدنا علي ؓ [وسيدنا الزبير بن العوام] [وغيرهما] - بلاء رائعًا - وطال الحصار وساءت حال المسلمين، وظهرت بذور الفتنة من المنافقين، ولكن محمدًا ﷺ سيطر على الوضع - بعبقرية نادرة - وثبت حتى ملت قريش واختلفت وأربكتهم ريح عاصف فرجعت بخفي حنين، وبهذا تمت للرسول الأعظم ﷺ السيطرة على المدينة وما حولها، وخاصة بعد أن استأصل شأفة بني قينقاع والتضير وقريظة وخيبر الذين كانوا يحالفون غيرهم عليه وينقضون عهدهم معه[١] وكانوا عونًا للأحزاب على المسلمين وأظهروا غدرهم وخستهم بشكل مكشوف هذه المرة. وكانت مراسلاتهم وعلاقاتهم متواصلة مع كفار قريش ضد المسلمين دومًا.

يذكر ابن هشام في السيرة النبوية: وذلك عن محمد بن إسحٰق، قال: ثم كانت غزوة الخندق في شوال سنة خمس (الهجرة).. وكان لليهود دور كبير في تحريض قريش وإعلان الحرب على رسول الله ﷺ[٢]... وعند قدوم الأحزاب وجدوا أمامهم خندقًا أحاط بالمدينة، وقام الرسول ﷺ بتوزيع المسؤوليات والاستعداد للمهمة، وكانت صفية بنت عبد المطلب في فارع، حصن حسان بن ثابت مع النساء والصبيان، ومعهم حسان بن ثابت ؓ[٣] وكانت صفية قد قتلت يهوديًا متسللًا إلى الحصن المذكور...

---

(١) يراجع ص ٢٢ من الكتاب المدرسي (مجمل تاريخ الأمة العربية) للأستاذ خليل أحمد حلو - بتصرف وتحوير - الطبعة الأولى ١٩٤٢ م - مكتبة النعمان - اعظمية - بغداد.

(٢) يراجع ص ٢١٤ وص ٢١٥ (السيرة النبوية) لابن هشام المجلد الثاني.

(٣) راجع ص ٢٢٨ من المصدر السابق.

هذه خلاصة رواية ابن هشام عن ابن إسحٰق.. لكن اليعقوبي يخالفها في ذلك ويذكر أن حقيقة الخبر تقع ضمن نتائج معركة أحد ولا علاقة بذلك بمعركة خيبر منقول في موضوع موقعة أحد:

«وكانت وقعة أحد في شوال بعد بدر بسنة: اجتمعت قريش واستعدت لطلب ثأرها يوم بدر، واستعانت بالمال الذي قدم به أبو سفيان، وقالوا: لا تنفقوا منه شيئًا إلا في حرب محمّد ﷺ، فكتب العباس بن عبد المطلب ﵁ إلى رسول الله ﷺ بخبرهم، وبعث بالكتاب مع رجل من جهينة، فخبّر رسول الله ﷺ أصحابه بخبرهم، وخرج المشركون، وعدتهم ثلاثة آلاف ورئيسهم أبو سفيان بن حرب، وكان رأي رسول الله ﷺ ألا يخرج من المدينة لرؤيا رآها في منامه، أنّ في سيفه ثلمة وأن بعيرًا يُذبح له، وأنه أدخل يده في درع حصينة، وتأولها محمد ﷺ أن نفرًا من أصحابه يُقتلون، وأن رجلًا من أهل بيته يُصاب، وأن الدرع المدينة، فأشارت عليه الأنصار الأمر، وقالوا: لا نخرج عن المدينة.

فقال: الآن وقد لبست لامتي، والنبي إذا لبس لامته لا ينزعها حتى يقاتل، ويفتح الله عليه، فخرج وخرج المسلمون وعدّتهم ألف رجل حتى صاروا إلى أحد، ووانى المشركون فاقتتلوا قتالًا شديدًا، فقُتل حمزة بن عبد المطلب ﵁ أسد الله وأسد رسوله، رماه وحشيّ عبد لجبير بن مطعم بحربة، فسقط ومثّلت به هند بنت عتبة بن ربيعة، وشقّت عن كبده فأخذت منها قطعة فلاكتها، وجدعت أنفه، فجزع عليه رسول الله ﷺ جزعًا شديدًا، وقال: لن أُصاب بمثلك، وكبر عليه (٧٥) خمسًا وسبعين تكبيرة، وانهزم المسلمون حتى بقي رسول الله ﷺ وما معه إلا ثلاثة نفر: عليّ والزبير وطلحة. وقال المنافقون: قُتل محمد، ورماه عبد الله بن قمئة فأثر في وجهه واقتحم خالد بن الوليد، وكان على ميسرة المشركين الثغرة، فقتل عبد الله بن جبير وجماعة من المسلمين ناشبة. كان رسول الله ﷺ صيّرهم على تلك الثغرة، ودخل عسكر رسول الله ﷺ وفيه كانت هزيمة المسلمين. قال الله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٥٣]. وعاتب الله المسلمين في آيات من كتابه. وقتل من المسلمين ثمانية وستون رجلًا، ومن المشركين اثنان وعشرون رجلًا، ثم رجع المشركون وفرّق الله جمعهم، وجاء يهودي حتى وقف على باب الأُطم الذي فيه النساء، وكان حسّان بن ثابت معهن، فصاح اليهودي: اليوم بطل

السحر، ثم ارتقى يصعد، فقالت صفية بنت عبد المطلب: يا حسّان انزل إليه. فقال: رحمك الله يا بنت عبد المطلب، لو كنت ممن يُنازل الأبطال خرجت مع رسول الله ﷺ أقاتل!!! فأخذت صفية السيف، وقيل: أخذت هراوة فضربت اليهودي حتى قتلته، ثم قالت: انزل فاسلبه! فقال: لا حاجة لي في سلبه، وروي أن رسول الله ﷺ ضرب لصفية يومئذ بسهم، فلما كان من غد يوم أحد، نادى رسول الله ﷺ فخرجوا على علتهم وعلى ما أصابهم من الجروح، وخرج رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى حمراء الأسد ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق كيدًا، فهم الذين أجابوا الله ورسوله من بعد ما أصابهم القرح».

هذه قصة صفية ﷺ مع اليهودي الخبيث كما رواها اليعقوبي ضمن حوادث معركة أحد، ونحنُ بدورنا نقلناها بحذافيرها دون زيادة ونقصان من باب الأمانة التاريخية، أما ابن هشام فإنه هو الآخر تطرق إلى قتل صفية لليهودي، ولكن يذكر الحادثة ضمن الحوادث اليومية التي جرت في أيام غزوة الأحزاب أو الخندق، عام ٥ هـ في شهر شوال، ويبدو من كلامه أن الحادثة لا علاقة لها بمعركة أُحد كما قرر اليعقوبي.

قال ابن هشام نقلًا عن ابن إسحٰق أنه حدثه يحيىٰ بن عباد عن عبد الله بن الزبير... في رواية عن صفية:

«كانت صفية بنت عبد المطلب في قارع، حصن حسان بن ثابت، قالت: وكان حسان بن ثابت معنا فيه، مع النساء والصبيان. قالت صفية: فمر بنا رجل من يهود، فهو يطيف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة، وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ والمسلمون في نحور عدوّهم، يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا آتٍ. فقالت: يا حسّان، إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن، وإني والله ما آمنه أن يدلّ على عوراتنا مَنْ ورائنا من يهود، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه، فأنزل إليه فاقتله، قال: ليغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا! قالت: فلما قال لي ذلك، ولم أر عنده شيئًا احتجزت(١) ثم أخذت عمودًا، ثم نزلت من الحصن إليه، فضربته بالعمود حتى قتلته، قالت: فلما فرغتُ منه، رجعتُ إلى الحصن، فقلت: يا حسّان: انزل إليه

(١) احتجزت: شددت وسطي. قال أبو ذر: «ومن رواه: اعتجرت، فمعناه: شددت معجري». وأبو ذر هو أحد كتاب السيرة النبوية ويلقب بالخشني.

فاسلبيه، فإنه لم يمنعني من صلبه إلا أنه رجل! قال: مالي بسلبه من حاجة يا ابنة عبد المطلب»[1].

قال السهيلي ـ وهو أحد كتاب السيرة النبوية الشريفة[2] معقبًا، ومجمل هذا الحديث عند الناس كان جبانًا شديد الجبن، وقد دفع هذا بعض العلماء وأنكره، وذلك أنه حديث منقطع الإسناد، قال: لو صح هذا لهجى به حسان، فإنه كان يهاجي الشعراء كضرار وابن الزبعري وغيرهما، وكانوا يناقضونه ويردون عليه، فما عيره أحد منهم بجبن، ولا وسمه به، فدل هذا على ضعف حديث ابن إسحٰق، وإن صح فلعل حسان أن يكون معتلًا ذلك اليوم، لعلة منعته من شهود القتال، وهذا أولى ما تأول عليه، وممن أنكر أن يكون هذا صحيحًا أبو عمر في كتاب الدرر له، وعقب على هذا الحديث أبو ذر الخشني ـ أيضًا بما لا يخرج عما ذكره السهيلي في (الروض الآنف)..

وقال الزبرقاني بعدما ساق رأي أبي عمر في الدرر، واستبعاده هذا على حسان: «وإنما كان أولى، لأن ابن إسحٰق لم يتفرد به، بل جاء بسند متصل حسن كما علم، فاعتضد حديثه، وقد قال ابن السراج: سكوت الشعراء عن تعبيره بذلك من أعلام النبوة، لأنه شاعره ﷺ»[3].

ومهما يكن موقف كُتّاب السيرة الشريفة عن موقف حسان مع اليهودي فمما لا تعارض فيه بينهم هو اتفاقهم جميعًا على قيام صفية بقتل اليهودي بلا شك، وهذا يدل على شجاعتها وبطولتها الفذة. بل ربما كان هذا اليهودي جاء مرسلًا من اليهود لكي يجسّ النبض، ويأتي ما يأتي لهم لكي يكملوا حلقة من حلقات المؤامرة أو الغدر المتفق عليه والذي رسموه بخفاء ومكر ودهاء.. ولكن الله فوت عليهم الفرصة على يد البطلة الصحابية صفية بنت عبد المطلب حيث برزت له فقتلته حتى يكون هذا عبرة لمن يعتبر منهم، ويظهر أن هذا العمل البطولي أفزع قلوب بقية اليهود وأقلقهم جدًا...

وممن تناول الموضوع في عرض تاريخي شيق ولكنه يغلب عليه طابع الأسلوب الأدبي الجذاب والممتع، هو السيدة سنية قراعة التي خرجت الرواية

---

(١) السيرة النبوية، المجلد الثاني ص ٢٢٨.   (٢) يراجع الروض الآنف.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ـ هامش الصفحة ٢٢٨ ـ ٢٢٩ القسم الثاني.

التاريخية بالخيال الأدبي الخصب والذي لا يخرج بدوره عن رسوم علم التاريخ وحقائقه، ونظرًا لطرافة أسلوبها قمت بتسجيل مقالها وذلك إتمامًا وإكمالًا لما ذكرته الصور الروائية السابقة المشيدة بقوة إيمان وشجاعة صفية وبطولتها وموقفها العظيم أمام التاريخ في دفع الخطر وإزاحة المعرقلات أمام موكب المسيرة الإسلامية المباركة: وهي ميزة عظمى تميزت بها صفية بين الصحابيات الجليلات ومُنقبة عالية تستحقها بكل تقدير..

قالت السيدة سنية تحت عنوان (وقعة الخندق) في مجلة العربي[1]:

..وتحزّبت الجزيرة العربية كلها بعد ذلك على محمد ﷺ والمسلمين، بإيحاء من اليهود، وعلى رأسهم حي بن أخطب، وقد أراد أن ينتقم لبني جنسه من يهود بني قينقاع الذين أمر محمد ﷺ بطردهم من ديارهم لجرأتهم على المسلمين وتعديهم على المسلمات.

وأشار سلمان الفارسي ﷺ بحفر الخندق، حول المدينة لحمايتها من الغزو، وأمر محمد عليه الصلاة والسلام، بتنفيذ فكرة سلمان ﷺ ورأى بثاقب بصره أن تنقل المسلمات إلى مكان بعيد عن دائرة القتال، وكان أن أرسلهم إلى حصن بعيد لحسان بن ثابت الأنصاري ﷺ شاعر النبوة.

وحدثت في هذه الآونة، وحرب الأحزاب مشتعلة الأوار، أن خان يهود «بنو قريظة» عهدهم مع رسول الله ﷺ، وانضموا إلى أعدائه وفتحوا بذلك الطريق الخلفي للمدينة وعرضوه لخطر هجوم لم يحسب له المسلمون أي حساب.

وكان حصن حسان بن ثابت الأنصاري في ذلك الطريق البعيد، وأصبح بعد الغدر اليهودي مكانًا ليس بالأمين للمسلمات المتحصنات به، وفيهن صفية بنت عبد المطلب، التي لم يداخل الخوف قلبها ووقفت ترقب الطريق الخطير في يقظة وتوثب واستعداد.

ورأت صفية يهوديًا يقرب من الحصن،.. وأثارها أن شهدته ينظر حواليه في حذر كمن يتجسس أو يختبر الطريق.. وأحسّت المسلمات بالخوف من الرجل وتوجسن مخافة أن يغدر بهن أو يرشد إلى مكانهن الأعداء المتربصين، وأسرعن إلى صفية يصارحنها بمخاوفهن... فراحت الهاشمية ذات القلب الكبير تهدىء من

---

(١) راجع مجلة العربي: العدد ٧٨ مايو ١٩٦٥. مقال: صفية بنت عبد المطلب ـ بقلم: سنية قراعة.

روع المسلمات الوجلات، وتطمئنُهن إلى أنه لن يحدث شيء مما تصورنه، ثم أسرعت بعد ذلك إلى حسان بن ثابت الأنصاري ﷺ، وهو يومها معهن بالحصن وقالت له:

ـ يا حسّان.. إن هذا اليهودي كما ترىٰ يُطيف بالحصن وإني والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود وهم يتربصون بنا، وإنهم لأهل غدر وخيانة.. وإني لأعلم أن رسول الله ﷺ وأصحابه قد شغلتهم عنّا الحرب الدائرة هناك، فهيا يا حسان!!! فاسرع وانزل إلى اليهودي فاقتله واكفنا شره.. وتقول الكاتبة سنية قراعة: وارتجف حسّان ﷺ وارتعد وهو مشفق على نفسه من هول الكرّ والفرّ، وامتشاق الحسام، وأسرع يقول لصفية في صراحته التي تميز بها شعره العظيم:

ـ يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب... والله لقد عرفت ما أنا بصاحب حرب ولا قتال.. ولا جلد لي على اللقاء في حومة الوغىٰ..

وأمام تراجع حسان بن ثابت وخوفه.. وإصرار اليهودي على الطواف بالحصن ومراقبة مَن فيه، زادت مخاوف المسلمات حتى لقد خشيت صفية أن يثير هذا نفس اليهودي، ويشجعه عليهن فيقوم بإغارة أو هجوم، وفكرت في الأمر طويلًا ولم تجد غير المخاطرة بنفسها، فأسرعت إلى الرمح وحملته، ثم نزلت في جرأة المحارب المدرب إلى حيث كان اليهودي، فصالت معه صولة صرعته بعدها، وتركته لسباع الطير ثم عادت إلى الحصن، وعاد معها الأمان إلى قلوب المسلمات.

وشاءت إرادة الله بعد ذلك، أن يتم الأمان.. فهزم الأحزاب وحده، وردهم عن المدينة (حيث سلّط عليهم ريح عاتية قوية).. (فولوا الأدبار على أثرها..).

وأسرع رسول الله ﷺ إلى من خانوا المواثيق ليؤدبهم وينفذ فيهم عدالة الله.

وعاد الهدوء يخيم على المدينة والسلام يرفرف فوق ربوعها.. وخرج المؤمنون من جهاد إلى جهاد، وراحوا يعملون ويجدون، ويعدون العدة لأهل الشرك والضلالات[1]..

---

(١) ص ٥٧ ـ ٥٨ مجلة العربي، العدد ٧٨ مايو ١٩٦٥، ببعض الإضافات مع بعض التصرف.

لقد كان قتل صفية لليهودي صفعة قوية على اليهود المنافقين داخل المدينة، كما أنها سدت أمامهم طموحاتهم الضالة في النيل من الإسلام والتخريب من الداخل، أو خرق الجبهة الداخلية، ولقد سرّ الرسول ﷺ وأصحابه بعدئذٍ بعمل صفية وباركوا لها شجاعتها، وضرب الرسول ﷺ لها بسهم.

إن تحرك هذا اليهودي الغادر وتسلله الاستطلاعي حول الحصن كان محاولة منه في إضعاف معنويات المسلمات وإلحاق الأذى بهن، وقد كان هذا دليلًا ساطعًا على انكشاف دسائس اليهود وألاعيبهم وخبثهم وغدرهم، مما حمل الرسول ﷺ والمسلمون بعدئذ أن يحاسبوهم على ما قاموا به من غدر وخيانة، وعدم التزامهم بالعهود والمواثيق المبرمة بينهم.. وعدم الأمان من جانبهم مطلقًا، سيما وقد تكررت عنهم صور الخيانة مرات عديدة وفي مواقف مختلفة وقد أخذوا فعلًا منهم الحذر الشديد.

إن قتل صفية لليهودي في أحداث غزوة الأحزاب ليست من الأمور الغريبة في حياة صفية الهاشمية البطلة فقد سبق لها وأن حملت الرمح لتذود عن رسول الله ﷺ يوم أحد وهي تصيح - ويلكم - ويلكم انهزمتم عن رسول الله ﷺ..!

وفي رأيي أن صفية لما قتلت اليهودي، كانت واثقة من شجاعتها وقدرتها على ذلك، لذلك دبرت أمرها مع نفسها وتقدمت حالًا نحوه، وقد كانت امرأة جلدة وقوية، وألقت الرعب في قلب اليهودي منذ أول وهلة ولم يثبت أمامها.. وهذه الصورة تذكرنا ببطولات زنوبيا ملكة تدمر التي كانت تقهر الأبطال وتنازل الشجعان، فيطير لها القلوب خوفًا منها في ساحة الوغىٰ، وتنتصر عليهم وتجعل من أجسادهم طعامًا شهيًا لسباع الأرض وكواسر الطيور ولتكون عبرة لمن يعتبر.

صفية في معركة خيبر

كان لصفية شرف الحضور في معركة خيبر سنة ٧ هـ - ٦٣٨ م.

وقد شارك ابنها الزبير فيها، وكان أحد أبطال المعركة، ومن جملة ما سجله لنا قلم التاريخ أنه بعد أن قتل مرحب اليهودي (على يد الصحابي محمد بن

مسلمة) خرج أخوه ياسر يثأر لأخيه، فقتله الزبير العوام ﷺ[1]، وعندئذٍ ضعفت روح اليهود المعنوية وساد الذعر بينهم وعمّ الخوف في صفوفهم[2].

وتحت مقتل مرحب اليهودي، وأخوه ياسر قال ابن إسحٰق: قال ابن هشام: ولما افتتح رسول الله ﷺ من حصونهم (أي اليهود) ما افتتح وحاز من الأموال ما حاز، انتهوا إلى حصنهم الوطيح والسلالم، وكان آخر حصون أهل خيبر افتتاحًا، فحاصرهم رسول الله ﷺ بضع عشر ليلة.

قال ابن هشام: وكان شعار أصحاب الرسول ﷺ يوم خيبر: يا منصور أمت أمت.

قال ابن إسحٰق: فحدّثني عبد الله بن سهل بن عبد الرحمٰن بن سهل، أخو بني حارثة، عن جابر بن عبد الله قال: خرج مرحب اليهودي من حصنهم، قد جمع سلاحه يرتجز وهو يقول:

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب
أطعن أحيانًا وحينًا أضرب إذا الليوث أقبلت تحرّب[3]
إن حماي للحمىٰ لا يُقرب[4]

وهو يقول من يبارز؟ فأجابه كعب بن مالك، فقال:

قد علمت خيبر أني كعب مفرّج الغمىّ جريء صلب[5]
إذا شبت الحرب تلتها الحرب معي حسام كالعقيق عضب[6]
نطؤكم حتى يذل الصَّعب نُعطي الجزاء أو يفيء النهب
بكفّ ماضٍ ليس فيه عتب

(١) ذخائر العقبىٰ ص ٢٥٢ وتاريخ خليفة بن خياط في حوادث سنة سبع ج ١ ص ٥٠.
(٢) (سيرة الزبير بن العوام) تأليف جميل إبراهيم حبيب ص ٥٥ الطبعة الأولى - بيروت - ١٩٨٥، الدار العربية للموسوعات.
(٣) شاكي السلاح: حاد السلاح وتحرّب: أي مغضبة.
(٤) وهناك زيادة بعد هذا الشطر: يحجم عن صولتي المجرب.
(٥) الغمى: الكرب والشدة.
(٦) شبت الحرب: أثيرت. والعقيق: شعاع البرق، شبّه السيف به.

قال ابن هشام: أنشدني أبو زيد الأنصاري:

قد علمت خيبر أني كعب | وإنني متى تشبّ الحربُ
ماضٍ على الهول جريء صلب | معي حسام كالعقيق عضب
بكفّ ماض ليس فيه عتب | ندكُّكم حتى يذلّ الصّعب

قال ابن هشام: ومرحب من حمير..

قال ابن إسحٰق: فحدثني عبد الله بن سهل، عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: قال رسول الله ﷺ: من لهذا؟ قال محمد بن مسلمة: أنا له يا رسول الله ﷺ أنا والله الموتور الثائر، قُتل أخي بالأمس، فقال: فقم إليه، اللهم أعنه. قال: فلما دنا أحدهما من صاحبه، دخلت بينهما شجرة عمرية[1] من شجر العُشر[2] فجعل أحدهما يلوذ بها من صاحبه، كلّما لاذ بها منه اقتطع صاحبه بسيفه ما دونه منها، حتى برز كل واحد منهما لصاحبه، وصارت بينهما كالرجل القائم، ما فيها فنن، ثم حمل مرحب على محمد بن مسلمة، فضربه، فأتقاه بالدّرقة، فوقع سيفه فيها، فعضت به فأمسكته، وضربه محمد بن مسلمة حتى قتله[3] [وكانت صفية ﵂ حاضرة آنذاك وتشهد فصول المعركة وما فيها من مواقف ومبارزات وما ألقيت فيها من قصائد]...

قال ابن إسحٰق: ثم خرج مرحب أخوه ياسر، وهو يقول: من يبارز! فزعم هشام بن عروة أن الزبير بن العوام خرج إلى ياسر، فقالت أمه صفيّة بنت عبد المطلب: يقتل ابني يا رسول الله! قال: بل ابنكِ يقتله إن شاء الله. فخرج الزبير فالتقيا، فقتله الزبير.

قال ابن إسحٰق: فحدثني هشام بن عروة: أن الزبير كان إذا قيل له: والله أنه كان سيفك يومئذٍ لصارمًا عضبًا، قال: والله ما كان صارمًا، ولكني أكرهته[4].

وهكذا نستدل أن صفية كانت مع المسلمين في خيبر، ويبدو أنها تشاءمت هذه المرة، من خروج الزبير إلى ياسر اليهودي، وخافت عليه من القتل، ولكن

---

(١) شجرة عمرية: قديمة.
(٢) العُشَر: شجر أملس مستو ضعيف العود.
(٣) وفي تاريخ اليعقوبي إشارة عابرة إلى أن قاتل مرحب هو الإمام علي عليه السلام دون الإشارة إلى التفاصيل، راجع ج ٢ ص ٥٦ طبعة صادر.
(٤) (السيرة النبوة لابن هشام)، المجلد الثاني ص ٣٣٢ ـ ٣٣٤.

الرسول ﷺ ثبتها وبشرها بالنصر، فسكتت صفية واطمأن قلبها، لأنها تعلم أن كلام رسول الله ﷺ حق وصدق. فانقلب شؤمها بعد ذلك إلى فخار ما بعده من فخار وسرور ما بعده من سرور.

الرسول ﷺ يغضب لبكاء صفية وأذاها

باب في فضل قرابة صفية من رسول الله ﷺ

عن ابن عباس: رضي الله عنهما[1] قال: توفي لصفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها ابن، فبكت عليه، فقال لها رسول الله ﷺ تبكين يا عمة! **«من توفي له ولد في الإسلام كان له بيت في الجنة يسكنه»** فلما خرجت لقيها رجل فقال لها: إن قرابة محمد ﷺ لن تغني عنك من الله شيئًا.. فبكت فسمع رسول الله ﷺ صوتها ففزع من ذلك فخرج، وكان ﷺ مكرمًا لها يبرها ويحبها. فقال لها: يا عمة تبكين وقد قلت لك ما قلت! قالت: ليس ذلك أبكاني، وأخبرته بما قال الرجل، فغضب ﷺ وقال: يا بلال هجر[2] بالصلاة ففعل، ثم قام ﷺ فحمد الله وأثنى عليه وقال: ما بال أقوام يزعمون أن قرابتي لا تنفع إن كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي وإن رحمي موصولة في الدنيا والآخر. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتزوجت أم كلثوم لما سمعت من رسول الله ﷺ يومئذ وأحببت أن يكون بيني وبينه نسب وسبب.

توصية نبوية شريفة لصفية وأقرباءه بعدم الاغترار بأنفسهم

عن عائشة رضي الله عنها قالت[3]: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: الآية ٢١٤] قام رسول الله ﷺ على الصفا فقال: يا فاطمة بنت محمد! يا صفية بنت عبد المطلب! يا بني عبد المطلب! لا أملك لكم من الله شيئًا سلوني من مالي ما شئتم، أخرجه مسلم[4].

---

(١) يراجع ص ١٦ (ذخائر العقبى)..

(٢) التهجير: التكبير في كل شيء يقال هجر يهجر تهجيرًا فهو مهجر وهي لغة حجازية، وأراد المبادرة إلى أول وقت الصلاة.

(٣) ص ١٨ (ذخار العقبى).

(٤) صحيح مسلم.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ حين أُنزل إليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: الآية ٢١٤] «يا معشر قريش ـ أو كلمة نحوها ـ اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئًا.. يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئًا... يا صفية (بنت عبد المطلب) عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنكِ من الله شيئًا.. يا فاطمة بنت محمد ﷺ سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئًا. وفي رواية «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئًا، ثم ذكر نحوه ولم يذكر يا بني عبد مناف. أخرجاه وأخرجه البخاري عنه، ولفظه أن النبي ﷺ قال: يا بني عبد مناف اشتروا أنفسكم من الله.. يا بني عبد المطلب اشتروا أنفسكم من الله.. يا أم الزبير عمة رسول الله ﷺ، يا فاطمة بنت محمد ﷺ اشتريا أنفسكما من الله لا أملك لكما من الله شيئًا سلاني من مالي ما شئتما. وأخرجه مسلم عنه: ولفظه قال: لما نزلت هذه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشًا فاجتمعوا، فعم، فخص، فقال: يا بني كعب بن لؤي انقذوا أنفسكم من النار.. يا بني مرة بن كعب انقذوا أنفسكم من النار.. يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار.. يا بني عبد مناف انقذوا أنفسكم من النار.. يا بني هاشم انقذوا أنفسكم من النار.. يا بني عبد المطلب انقذوا أنفسكم من النار.. يا فاطمة بنت محمد ﷺ انقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئًا غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها(١). وفي رواية لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ جمع رسول الله ﷺ قريشًا فخص وعم وقال: يا معشر قريش انقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضرًا ولا نفعًا.. يا معشر عبد مناف انقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك ضرًا ولا نفعًا.. يا فاطمة بنت محمد ﷺ انقذي نفسك من النار فإني لا أملك لك ضرًا ولا نفعًا إلا أن لك رحمًا سأبلها ببلالها، أخرجه الحافظ أبو الحسن الخلعي، وهذا لا يضادد ما تقدم وأنه ﷺ لا يملك لأحد من الله شيئًا ولا ضرًا ولا نفعًا لكن الله عز وجل يملكه نفع أقاربه وأمته بالشفاعة الخاصة والعامة. اهـ(٢). وصفية هنا جمعت بين

---

(١) استعير البلل هنا لمعنى الوصل، (صلة القربى مع الرسول ﷺ، ومعناه: أي أجعلكم في الدنيا ولا أغني عنكم من الله شيئًا، والبلال جمع بلل).

(٢) راجع ص ١٨ ـ ١٩ مع الهامش (ذخائر العقبىٰ في مناقب ذوي القربىٰ) لمحب الدين الطبري.=

العام والخاص في نوال شفاعة محمد ﷺ كما يفهم من سياق الروايات الواردة والله أعلم.

مداعبة الرسول ﷺ لعمته صفية رضي الله عنها

قلنا في غير مكان أن الرسول ﷺ كان يحب ويقدر عمته صفية ويبرها، وكانت صفية بدورها تحب محمدًا ﷺ فوق الوصف، وكان اسم محمد ﷺ يصعد وينزل في قلب صفية ونفسها وأحاسيسها، ولعل الكاتبة سنية قراعة عبّرت عن هذا الموضوع بشكل وافٍ فقالت(1):

وسارت الحياة سيرها الرتيب في المدينة، . . وازدادت هيبة المسلمين في النفوس. . وراح محمد عليه الصلاة والسلام يوجه ويعلّم ويتلقى الوحي، ويشحذ الهمم ويذكي النفوس ويجمع القلوب على التقوى والإيمان. .

وعاشت صفية رضي الله عنها تلك الفترة في سعادة ورغد، تنعم بما كان ينعم به المسلمون جميعًا. . وكانت رضي الله عنها أثيرة عند رسول الله ﷺ، قريبة إليه، عزيزة المكانة عنده، . . وكان ﷺ يوليها العطف وتحلو له مداعبتها، والتظرف معها. . وكانت قد هرمت في تلك الآونة، وسألت رسول الله ﷺ بالجنة! فقال لها مداعبًا: إن الجنة لا يدخلها عجوز. . فحزنت صفية لذلك، وخيّمت على وجهها سحابة من أسى، وأطرقت طويلًا، وإذا بمحمد ﷺ يقبل عليها ملاطفًا، ليخرج بها من الخيال إلى الحقيقة قائلًا لها إنها حين تبعث في الحياة الأخرى ستكون شابة لا تعرف الهرم، ولا تحمل وقر السنين، تقول الحق جل وعلا: بسم الله الرحمـٰن الرحيم ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾ [الواقعة: الآيات ٣٥ - ٣٧] . . .(2).

= طبع دار القادسية ببغداد سنة ١٩٨٤ بتقديم جميل إبراهيم حبيب. ويفهم من سياق كلام الماوردي ص ١٢٣ ط بيروت ١٩٨١ في (أعلام النبوة) مختصرًا أن أول من أسلم أبو بكر ورهطه من الشباب مثل عثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمـٰن بن عوف وسعد وأبا عبيدة، . . . الخ ثم تتابع غيرهم ثم أمر الله رسوله أن يجهر بالدعاء بقوله ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحِجر: الآية ٩٤] . . الآية، فجهر بالدعاء قال ابن إسحـٰق: ذلك بعد ثلاث سنين من مبعثه. . وأمر أن يبدأ بعشيرته الأقربين بقوله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢١٤] . . . الآية اهـ. . والذي نستدل فيه من إشارات هذه الآية قدم إسلام صفية رضي الله عنها .

(١) ص ٥٨ (مجلة العربي) العدد ٧٨ مايو ١٩٦٥ م.

(٢) القرآن الكريم.

صفية ﷺ تروي عن رسول الله ﷺ

جاء في نزهة المجالس ومنتخب العرائس: قال الزبير بن العوام ﷺ وعن أمه صفية بنت عبد المطلب ﷺ، قال النبي ﷺ:

«ما من رجلٍ يدعو بهذا الدعاء في أول ليله أو نهاره إلا عصمه الله من إبليس وجنوده: بسم الله، ذي الشأن، عظيم البرهان، شديد السلطان، ما شاء الله كان، أعوذ بالله من الشيطان»[١].

مشاركة صفية في غسل أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ

ماتت أم كلثوم في سنة ٩ هـ تسع من الهجرة وغسلتها أسماء بنت عميس وصفية بنت عبد المطلب وشهدت أم عطية غسلها، وروت قول رسول الله ﷺ غسلتها ثلاثًا أو خمسًا أو سبعًا أو أكثر من ذلك، أن رأيتن ذلك بماء وسدر واجعلن في الآخرة كافورًا أو شيئًا من كافور فإذا فرغتن فآذنني فلما فرغن آذناه فألقى إلينا حقوه وقال اشعرنها إياه قالت: ومشطناها ثلاثة قرون وألقيناها خلفها.. الخ[٢] وهناك إضافات أخرى على الرواية كففنا عن ذكرها وذلك تجنبًا للتطويل[٣]. ولأننا اقتصرنا على حاجتنا بما فيه الكفاية وهو ما يتعلق بدور صفية فقط.

آمال صفية ﷺ تحققت في ظل رسول الله ﷺ

ضمن هذا المعنى وفي إطار هذا العنوان تقول الكاتبة سنية قراعة، وهي بدورها تواكب حلقات مسيرة حياة صفية ﷺ[٤]:

ومرت الأيام بعد ذلك بصفيّة، وهي تشهد كل يوم نصرًا يهبه الله لرسوله، وعزًّا يصفيه على المسلمين، وأمجادًا في أثر أمجاد تنالهم..

وقد تحققت (آمال) صفية (النابعة من إحساسها الصادق).. فخرج السفهاء (الكفار) إلى مصارعهم، يوم بدر، وأحد، والخندق، وأقرّ الله عينها بأن شهدت فتح مكة، وشهدت مصرع البقية الباقية من عصابة الضلال، ورأت أصنام قريش

---

(١) نزهة المجالس ومنتخب العرائس ج ١ ص ١٤١.
(٢) ص ١٧٦ (ذخائر العقبىٰ). (٣) ص ١٧٧ (ذخائر العقبىٰ).
(٤) ص ١٥٨ (مجلة العربي) العدد ٧٨ مايو ١٩٦٥، ببعض التحوير والتهذيب والإضافة.

والقبائل جمعاء وهي تتهاوى أمام ضربات المسلمين، وتزول معالمها، ويطهر بذلك بيت الله، فلا يعبد فيه أحد غير الله وحده لا شريك له، ولا شفيع عنده غير صالح العمل.

ورأت صفية، الكافرين، وهم يدخلون في دين الله أفواجًا، وشهدت الإشراقة الكاملة لنور الدعوة، وكيف بدأت تضيء وتضيء وتنتشر أنوارها على البقاع وتخرج إلى العالمين كافة.

فجيعة صفية بوفاة النبي محمد ﷺ

ومضت السنون، وأكمل الله للمسلمين دينهم، وأتم عليهم نعمته، ورضي لهم الإسلام دينًا.. وانتقل أفضل خلق الله إلى جوار ربه[1] العزيز على المسلمين وصفية وحبيب الله وحبيبهم محمد ﷺ.. وكانت صفية في غاية الحزن، ساعة تلقت النبأ، وهي تبكي ودموعها تتساقط. وهي تشارك المسلمين هذا المصاب الجلل.

ورد في الروض الفائق في المواعظ والرقائق للشيخ الحريفيش في «وفاة النبي» حيث قال:

...ولما توفي النبي ﷺ اجتمع الناس في المسجد وضجوا بالبكاء والنحيب، وأظلمت الدنيا..

ونادى بلال: وانبياه..

ونادت فاطمة: واأبتاه..

ونادى الحسن والحسين: واجدّاه..

ونادى كلٌ من المسلمين: واحزناه..

وأول من بكاه ورثاه الصديق ﷺ ثم الآخرين[2].. وكانت صفية ﷺ من جملة من رثوا رسول الله ﷺ فقالت وهي ترثيه في قصيدتها الشهيرة:

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا   وكنت بنا برًا ولم تك جافيا

---

(١) مجلة العربي (ص ٥٧).. المصدر السابق..

(٢) ص ٣٢٨ - بتصرف - عن طبعة مصر (المطبعة اليوسفية بلا تاريخ) أما التفاصيل فيمكن متابعتها ص ٣٢٢ إلى ص ٣٣١.

وكنت بنا[1] برًا رؤوفًا نبيًّا ... ليبك عليك اليوم من كان باكيا
كأن على قلبي لذكر محمدٍ ... وما خفت من بعد النبي المكاويا
أفاطم صلى الله رب محمدٍ ... على جدثٍ أمسىٰ بيثرب ثاويا
فدى لرسول الله أمي وخالتي ... وعمي ونفسي قصدة وعياليا
صدقت وبلغت الرسالة صادقًا ... ومت صليب الدين أبلج صافيا
فلو أن ربّ الناس أبقاك بيننا[2] ... سعدنا ولكن أمره كان ماضيا
عليك من الله السلام تحية ... وأدخلت جنات من العدن راضيا
أرى حسنًا أيتمته وتركته ... يبكي ويدعو جده اليوم نائيا

روى هذه الأبيات الحافظ السلفي بسنده عن هشام بن عروة[3].

وقالت صفية ﷺ ترثيه ـ عليه السلام ـ بهذه الأبيات التالية[4]:

طال ليلي أسعدتني أخواتي ... ليس ميتي كسائر الأموات
ليس ميتي من مات في النا ... س ولا كان مثله في الحياة
طال ليلي لنكبة قطعتني ... لا أرى مثلها من النكبات

وقالت صفية أيضًا[5]:

ما لعينيَّ لا تجودان رِيا ... قد رزينا خير البرية حيا
يوم نادى إلى الصلاة بلال ... فبكينا بعد النداء مليّا
كل يوم أصبحت فيه ثقيلًا ... لا ترد الجواب منك إليا
لم أجد قبلها ولست بلاقٍ ... بعدها عضة أمر عليا
وحمان الشيخ منحور في ... عارضيه كالمسك فاح ذكيا
وهي في الصدر قد تساق حثيثًا ... ومن الوقت عند ذاك هويا

---

(١) في نسخة: «وكان بنا».
(٢) في نسخة: «أبقى نبينا».
(٣) راجع ص ٢٦٢ (ذخائر العقبىٰ).
(٤) ص ٣٥ الزهرة (النصف الثاني) تأليف أبي بكر بن داود الأصفهاني (تحقيق الدكتور إبراهيم السامراني والدكتور نوري حموري القيس)، وزارة الثقافة والإعلام ـ العراق (١٩٧٥).
(٥) المصدر نفسه.

ليت يومي يكون قبلك يومًا   أنضج القلب للحرارة كيا
خُلقًا عاليًا ودينًا كريمًا   وصراطًا تُهدي به مستويا
وسراجًا يهدي الظلام مثيرًا   ونبيًّا مسودًا عربيا
حازمًا عازمًا حليمًا كريمًا   عابدًا بالنوال برًا نقيا
إن يومًا أتى عليك ليوم   كُدِرت شمسه وكان جليا
فعليك السلام منا ومن ربـ   ـك بالروح بكرة وعشيّا

ورثته أيضًا قائلة[1]:

فيا عين جودي بالدموع السواجم   لفقد رسول الله إذ حان يومه

وظلت ذكرى رسول الله ﷺ في خيال وضمير صفية حيّة بقية حياتها..

فجيعة صفية بوفاة فاطمة رضي الله عنها

كانت صفية رضي الله عنها تحب فاطمة الزهراء حبًا جمًا وتكنّ لابن أخيها أبي طالب (الإمام علي) كل التقدير والاعتزار، وكانت تحب الحسنين، وتتفقدهما وكان الإمام علي وفاطمة يكرمان ويبران صفية بنت عبد المطلب تقديرًا لتقدير رسول الله ﷺ لها ولصلة القربىٰ الشديدة والوثيقة معها.

وقد فجعت صفية جدًا بل وأصابتها هزّة عنيفة من الحزن والألم لمرض ووفاة فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ، وبالتأكيد بكت عليها جدًا، وشاركت الإمام علي وبني هاشم بهذا المصاب المؤلم الذي ألمّ بهم بعد وفاة رسول الله ﷺ بعهد قريب جدًا. فكانت تعتبر نفسها كأنها هي صاحبة المصاب والعزاء، علمًا وكما أشرنا فإن علاقة صفية بالإمام علي والسيدة فاطمة كانت من الوثاقة والقوة بما لا يوصف. وذلك لكونهم من عائلة عبد المطلب بن هاشم الجد الأعلى للعائلة، وصفية هي عمة الرسول ﷺ وعمة علي بن أبي طالب. بالاشتراك. فالرسول ﷺ والد فاطمة وعلي زوجها وقرابتها من هذا الرجلين تعتبر ذروة الفضائل ولا ينافسها أحد بهذه المنزلة.. من الناس أبدًا.

(١) ص ٥٨ (مجلة العربي ١ العدد ٧٨ مايو ١٩٦٥ م).

صفية في عهد الخلفاء الراشدين

عاشت السيدة صفية بعد الرسول ﷺ محفوفة بالرفق والاحترام والمؤانسة من قبل الخلفاء والصحابة بما يحفظ لها كرامتها ومقامها فآثروها بعنايتهم وفاء لذكرى الرسول ﷺ وإجلالًا لمكانتها منه.

١ ـ في عهد أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

كان أبو بكر رضي الله عنه يتفقد أقرباء رسول الله ﷺ ويفضلهم على أقربائه وذلك تكريمًا لرسول الله ﷺ، وكانت علاقة صفية بالخليفة أبو بكر رضي الله عنه علاقة مصاهرة، ولها معه قرابتان، إحداها بعيدة بعض الشيء، والأخرىٰ قريبة جدًا، فالبعيدة هي لقائها في النسب مع أبي بكر في مرة بن كعب، والأخرىٰ وهي متعددة الجوانب، فعائشة بنت أبي بكر رضي الله عنه هي زوجة النبي محمد ﷺ ابن أخي صفية، وكذلك أسماء بنت أبي بكر زوجة ابنها الزبير بن العوام رضي الله عنه وجاء من أسماء أكثر ذرية الزبير رضي الله عنه وعن طريقها امتزجت دماء بني مرة وأسد وهاشم، فمرة الجد الأعلى لأبي بكر وأسد الجد الأكبر للزبير، وهاشم الجد الأعلى لبني هاشم وكلهم أشهر من علم على نار قرابة وفضلًا ومنزلة ويظهر أن صفية عاشت معززة مكرمة في عهد أبي بكر ولم يكدر لها شيء سوى تخوفها من اتساع دائرة الردة وتأثرها بوفاة السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام فأما الردة فقد قبرت بدهاء وقوة قيادة أبو بكر رضي الله عنه ورجعت الوحدة إلى البلاد، وذهبت الفرقة والتشتت إلى غير رجعة، وأما مصابها الآخر وهو وفاة فاطمة عليها السلام فقد سلمت أمرها إلى الله واستعانت بالصبر والصلاة، وكانت تقضي أوقاتها كلها بالعبادة والحرص على الفرائض والتردد علىٰ مسجد رسول الله ﷺ لأداء الصلاة مع النساء، وكانت محبوبة ومحترمة بين نساء المدينة، وكان الخليفة أبو بكر يعتبر مكانتها ويحسب لها حسابها بالتقدير والاحترام. تقول الكاتبة سنية قراعة «وعاشت صفية بعد خلافة أبو بكر، وقد فرض لها ستة آلاف درهم»(١).

ويظهر أن أسماء بنت أبي بكر، زوجة الزبير بن العوام (ابن صفية) كانت تنظر إلى صفية بعين الاعتبار وتهيأ لها كل الخدمات والحاجات، وتعاملها معاملة ممزوجة باللطف والعطف والإكرام كيف لا وهي عمة رسول الله ﷺ، ووالدة

---

(١) مجلة العربي ص ٥٨ العدد ٧٨ مايو ١٩٦٥.

زوجها الزبير بن العوام ﷺ، وهي بنت عبد المطلب بن هاشم، وأخت أسماء هي عائشة أم المؤمنين زوجة الرسول ﷺ، وصفية عمته ﷺ كما ذكرنا فالصلة وثيقة جدًا بينهما، والكل من قريش والأصل واحد وفضل ظهور النبوة يعم الجميع.

٢ ـ في عهد الخليفة عمر بن الخطاب:

إن نسب آباء صفية مع آباء عمر وبقية الخلفاء يلتقي في بضع أجداد، لا داعي لذكرها، لأنها لا تعد الأصابع، وقد ذكرنا شيئًا من ذلك في نسب أبو بكر ﷺ ولصفية مع عمر ﷺ صلة قربىٰ من أوجه شتىٰ، فحفصة بنت عمر هي زوجة الرسول ﷺ ابن أخيها عبد الله بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب هو زوج أم كلثوم بنت علي عليه السلام ابن أبي طالب بن عبد المطلب، ابن أخيها كذلك..

وصفية بنت عبد المطلب شهدت خلافة عمر بن الخطاب ﷺ ويبدو أنها كبرت، ولكنها ظلت كما كانت في عهد رسول الله ﷺ وخليفته أبو بكر من سمو المكانة وعلو التقدير، إذ كان الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ هو الآخر ينظر لها بعين التقدير والإكرام فيبرها ويزورها ويتفقدها ويسأل عنها، وكانت تقضي أيامها في عهده بالعبادة كدأبها ومشاركة الناس في أمورهم والتواصل مع أقربائها وغيرهم، وكان الصحابة هم الآخرين يحملون نفس مشاعر أبو بكر وعمر وعلي وعثمان في تكريم مكانة صفية وتقدير ما لها درجة ورفعة وقرابة مع رسول الله ﷺ. فضلًا عن انحدارها إلى أكرم الآباء وأفضل الأحساب.

٣ ـ في عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ:

لصفية مع عثمان رابطة وثيقة في القربى، وكان عثمان ﷺ مشهورًا بصلة القربىٰ من جهة أمه وأبيه قبل وبعد الإسلام، فقد كان بلا شك لا ينسى مكانة صفية بنت عبد المطلب ﷺ من شتى الأوجه ومما زاد من مكانة عثمان برابطة التقرب من بني هاشم أيضًا هو زواجه من ابنتي رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ ابن أخي صفية... وعبد المطلب والد صفية هو جد عثمان لأمه.

وقيل إنها توفيت في أوائل خلافة عثمان، وقيل في خلافة عمر، والله أعلم، وإذا كانت قد ماتت في نهاية خلافة عمر فلا يضادّ ذلك أنها دخلت وشهدت أوائل خلافة عثمان بعض الأيام!!

ودفنت بالبقيع، بفناء دار المغيرة بن شعبة وكان سنها يوم توفيت ٧٣ ثلاثًا وسبعين سنة. وقبرها يُزار، ولزيارة قبرها فضيلة مخصوصة. وكان يوم دفنها مشهودًا، إذ حضر فيه الخليفة وكبار الصحابة، ورجال المدينة، وخيّم بينهم الحزن، وترحموا لها، وودعوها في قبرها باحترام مهيب.

٤ ـ علاقة صفية مع الإمام علي عليه السلام:

وعلى الرغم من أنها لم تدرك خلافة الإمام علي ﷺ، إذ هي ماتت قبل ذلك الوقت، إلا أنها كانت تحب عليًا جدًا، وكان عليّ وأولاده من أفضل خلق الله لديها بعد رسول الله ﷺ وكانت تحب الحسن والحسين بدرجة خاصة وتفضلهما على أولادها، وكانت الاتصالات واللقاءات بين صفية وابن أخيها علي بن أبي طالب في عهد الخلفاء الراشدين الثلاث على أحسن ما يرام وأصفىٰ ما يكون، وكان الإمام علي عليه السلام يذكرها ويشيد بها، في حياتها، وبعد مماتها، في المناسبات الداعية إلى الفخر بأمجاد الآباء أو الأعمام والعمات، وصفية حقًا وحقيقة كانت البطلة الشجاعة ابنة الكرام، والشامخة الاسم والوصف في صفحات الأيام فلا غضاضه بل لا تثريب علىٰ عليّ إذًا أن يفتخر بها وينشر أمجادها. وكأن لسان حال عليّ يقول: (أولئك عماتي فجئني بمثلهن)... على حد قول القائل: (أولئك آبائي فجئني بمثلهم...)..

الزبير يتذكر أمه صفية وينسحب من معركة الجمل

كان قتل عثمان ﷺ، فتنة أصابت الأمة، والمعلوم أن أصحاب أصابع هذه الفتنة كثيرون، ومدبروها كانوا منتشرين ومتفرقين كان يعملون بخفاء ودهاء من وراء الستار، وأكثر هؤلاء من جماعة عبد الله بن سبأ، وهو من اليهود واتفق معه سفهاء مصر والكوفة والبصرة وكثير من الموالي الناقمين ومن به آثار الجاهلية والنصرانية والمجوسية، فطفقوا جميعًا يغذون الفتنة، وسقط عثمان شهيدًا بعد ذلك، ثم أجمع هؤلاء المثالان أمرهم من جديد، حين توسعت رقعة الفتنة وما ترتب عليها من نتائج خطيرة أدت إلى تفريق الأمة، ونشوب ما يسمى بمعركة الجمل، وحين أدرك الزبير وطلحة والسيدة عائشة حقيقة الأمر وتوصلوا إلى الصح واتفاق الكلمة عدة مرات، كان هؤلاء الغوغاء مندسين بين الطرفين لمنع التفاوض، لأنهم أدركوا أن إتمام الصلح يجر إلى وحدة الكلمة، ووحدة الكلمة ليست في صالحهم مطلقًا، علمًا بأن خروج السيدة عائشة والزبير وطلحة كان لمتابعة قتلة

عثمان، وكان الإمام علي هو أحرص منهم للقصاص من قتلة عثمان متى ما هدأت الأمور واستقرت الأحوال، فكان علي عليه السلام في كل المواقف يطلب الكف عن طلحة والزبير وعائشة حتى يتم الصلح والاتفاق على النقاط المختلفة عليها وفق الشريعة الغراء. وكانت المراسلات من أجل ذلك جارية، رغم المناوشات التي كانت تتخلل بين الجانبين المحاربين. ويتطور الحال فيركب علي فرسُه، ويلتقي مع الزبير وجهًا لوجه، وينشده بالله، ويرحمه من هاشم من جهة أمه صفية أن يخرج من المعركة، ويقول له معاتبًا: (كنا نعدك من بني عبد المطلب)... وعظّم عليه أشياء أخرى منها حرمة صفية، فهي أم الزبير وعمة النبي ﷺ وعمة علي عليه السلام.. والزبير يقول: «نعم»، فانصرف علي إلى أصحابه، فقال الزبير: أما الزبير فقد أعطى الله عهدًا ألا يقاتلكم[1]...

ورجع الزبير إلى عائشة ﷺ فقال لها: ما كنت في موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمري غير موطني هذا... الخ»[2].

وكانت السبأية من بداية نشوب الفتنة حتى نهايتها شكليًا هي السبب في الحرب وإبعاد الأطراف المتحاربة عن خط الصلح وعن طريق إثارة الشكوك والفتن، وكان معهم كثير من الموالي الموجودين في الكوفة والبصرة..

يقول الطبري: «ثم التقى القوم، فكان أول قتيل طلحة ﷺ وكعب بن سور معه المصحف يذكّر هؤلاء وهؤلاء، حتى قتل من قتل منهم، ولحق الزبير بسفوان من البصرة كمكان القادسية منكم، فلقيه النعر، رجل من مجاشع، فقال: أين تذهب يا حواري رسول الله ﷺ؟ إليّ فأنت في ذمتي لا يوصل إليك.. فأقبل معه، فأتى المغيرة خبره، فقيل: ذاك الزبير قد لُقي بسفوان فما تأمر؟ قال [وليتَه سكت]: جمع بين المسلمين حتى ضرب بعضهم حواجب بعض بالسيوف ثم يلحق بيته!! فسمعه عمرو بن جرموز وفضالة بن حابس ونفيع، فركبوا في طلبه، فلقوه مع النّعر، فأتاه عمير بن جرموز (وفي روايات أخرى عمرو بن جرموز) من خلفه وهو على فرس له ضعيفة، فطعنه طعنة خفيفة، وحمل عليه الزبير وهو على فرس له يقال له ذو الخمار، حتى إذا ظنّ أنه قاتله نادى عمير بن جرموز: يا نافع، يا فضالة، فحملوا عليه فقتلوه»[3]، وقيل إنه قتله وهو على الصلاة غدرًا «ثم

(١) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٥٠٢. (٢) المصدر نفسه.
(٣) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٤٩٩ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف ١٩٧٠ م بمصر.

جاء عمرو بن جرموز إلى الأحنف، فقال: أدركته في وادي السباع فقتلته، فكان يقول: والذي نفسي بيده إن صاحب الزبير الأحنف»[١]، وجاء عمرو بن جرموز الغادر قاصدًا الدخول على الإمام علي عليه السلام، ليزف إليه بشرى مقتل الزبير على يديه، فلم يلقَ من الإمام علي عليه السلام الترحاب بل استاء الإمام جدًا، منه وأنذره على قتله لابن عمته صفية، وبالتأكيد تذكر الإمام علي في هذا الموقف الحرج صورة عمته في الخيال، في تلك اللحظة، أن الزبير رجل شجاع، والإمام علي عليه السلام وهو أعرف الناس به يعرف أن خروج الزبير وكلمة عائشة لم يكن إلا للقصاص من قتلة عثمان الذي هو الآخر كان أحرص من البقية في التشدد في هذا الأمر، . . ولذلك لم ييأس الإمام علي من الالتقاء بالزبير والاتفاق معه على إنهاء القتال، وقد أقنعه فعلًا في ساحة الوغىٰ، وخرج الزبير، ووفى بعهده (وأخذ يسير مسرعًا باتجاه المدينة، فنزل بوادي السباع، وقام يصلي، فأتاه ابن جرموز (لعنه الله)، وكان يتبعه، فقتله (غيلة)، وجاء بسيفه إلى عليّ فقال علي ﷺ: «إن هذا سيف طالما فرّج الكرب عن رسول الله ثم قال عليّ قول (محمد ﷺ) إلى ابن جرموز: «بشّر قاتلَ ابن صفية بالنار»[٢] وكان قتله يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى من سنة ٣٦ هـ (ست وثلاثين للهجرة)، وقيل إن ابن جرموز استأذن على علي بن أبي طالب عليه السلام فلم يأذن له، وقال للآذن بشره بالنار! فأنشد ابن جروموز قائلًا:

أتيت عليّ برأس الزبير	أرجو لديه الزلفة
فبشر بالنار إذ جئته	فبئس البشارة والتحفة
وسيان عندي قتل الزبير	وضرطة عنزة بذي الجحفة[٣]

وقد تضايق الإمام علي بن أبي طالب من قتل الزبير وتأسف وغضب وقال لابن جرموز «ما كان ابن صفية جبانًا ولا لئيمًا ولكن الحين ومصارع السوء»، فقال ابن جرموز: الجائزة يا أمير المؤمنين. . . الخ[٤].

وقد تطرق أبو محمد بن عبد الله اليافعي اليمني في كتابه مرآة الجنان وعيرة اليقظان فسجل تلك الحادثة المؤسفة بعبارات جامعة فقال ما نصه:

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٥١١. (٢) أسد الغابة ج ٢ ص ١١٩.
(٣) أسد الغابة ج ٢ ص ١٩٩.
(٤) حرب الجمل للسيد محسن العالمي ص ٤٠.

«وقتل الزبير بن العوام القرشي الأسدي حواري النبي ﷺ وابن عمته صفية ﷺ، وأول من سلّ سيفًا في سبيل الله، الذي قال ﷺ في قاتله بعض الأخبار: بشروا قاتل ابن صفية بالنار» فقتله ابن جرموز بوادي السباع بقرب البصرة منصرفًا تاركًا للقتال، طالبًا للسلامة من الفتن وما يترتب عليها من الآفات والداء العضال، فلحقه الشيطان المذكور، وأوهمه أنه مسائر فأمنه ولم يشعر، أنه غادر، فاستغفل الهزبر الذي كان يكسر العساكر فقتله، بُعدًا منه، وأخذ سيفه ذلك التعيس الفاجر، ثم جاء إلى عليّ بسيفه ليبشره بزعمه بذلك، فبشّره عليّ بالنار التي بشّر بها النبي ﷺ، قاتله الخاسر الشقي، فقال له التعيس عندها بطريق الحجاج لا التندم، يا ويلنا إن قاتلناكم ويا ويلنا إن قاتلنا معكم[١].

«وذكر بعضهم أنه لما نظر علي عليه السلام، سيف الزبير معه، قال بعدما بشره بالنار، طالما فرّج الكرب عن رسول الله ﷺ! فقال: إنّا لله وإنا إليه راجعون، إن قاتلناكم فنحن في النار، وإن قاتلنا لكم أو قال معكم فنحن في النار! فقال له علي: ويلك ذلك شيء سبق لابن صفية ﷺ. فقال: والله ما قتله إلا لهواك، ثم ولى مغضًا»[٢].

ولقد كذب ابن جرموز في حجاجه أمام الإمام علي عليه السلام بقوله أنه قتله لأنه يهوى الإمام علي عليه السلام، فالإمام علي كرّم الله وجهه، أبرأ ما يكون في استرخاص دماء الناس بسبب هواه، بل هو أحرص الناس على دمائهم وأموالهم في كل حلقات حياته التي عُرفت عنه في التاريخ، فكيف الأمر مع ابن عمته ورفيق جهاده البطل الشجاع أبي عبد الله الزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ صاحب المواقف والمشاهد والبطولات والصولات والجولات والمكارم والمناقب والفضائل التي لا تعد ولا تحصىٰ[٣]!

ومن الاحتمالات التقديرية والمستنتجة من الروايات التاريخية التي قد تأتي في صيغ مختلفة ومتناقضة أحيانًا للخبر الواحد: (إن ابن جرموز ـ لعنه الله ـ بعد أن قتل الزبير، وسلبه سلاحه وخاتمه، . . . هال عليه سوء المصير، فانهزم ولحق

---

(١) مرآة الجنان (ج ١ ص ٩٧ ـ ٩٨) ط بيروت ١٩٧٠ م.
(٢) مرآة الجنان ج ١ ص ٩٨.
(٣) ينظر (الأقباس النيرة في فضائل العشرة المبشرة) كما في طبقات ابن سعد تقديم وإعداد جميل إبراهيم حبيب، المكتبة العالمية ـ بغداد ـ الطبعة الأولىٰ ١٩٨٩.

بالخوارج، ثم خرج مع من خرج معهم على الإمام علي عليه السلام. وحين خرج الإمام علي عليه السلام إليهم ليقضي على فتنتهم، كان ابن جرموز ممن قتل[1] في تلك الواقعة ومن يدري ولعله قتله بنفسه وبيديه الشريفتين[2]. وقد تأثر الإمام علي عليه السلام جدًا، لقتل الزبير عليه السلام واستنكر من ابن جرموز فعلته الشنعاء التي إن دلت على شيء فإنما يدل على الخسة والخبث واللؤم والغدر الفظيع وإلا ما الداعي إلى قتل الزبير وقد سحب نفسه من المعركة ورجع إلى بيته في المدينة وهو تارك للقتال!.

الإشارة إلى السيدة صفية الهاشمية في أشعار المواليد النبوية

بقيت مواقف صفية في التاريخ وقرابتها من رسول الله ﷺ في ذاكرة الأجيال، خاصة وأنها عمة رسول الله ﷺ وبطلة أُحد والأحزاب، بنت عبد المطلب وأم الزبير بن العوام أحد العشرة المبشرة، وجدة الخليفة الثائر العائذ ببيت الله الحرام أبي بكر عبد الله بن الزبير ﷺ، لذلك نرى صدى أعمالها ومناقبها المتعددة تتكرر مع صفحات الزمن الخالدة وتتجدد مع لوحات الضمير ومستقرات الوجدان، وقد التفت إلى تلك المنزلة العليا لمكانة صفية ﷺ قراء وشعراء المدح النبوي، فعمد بعضهم إلى حشر اسم صفية في أبيات القصيدة، لبيان ما يليق بها من كرامة ومنزلة ودرجة.. وإليك إحدى القصائد على سبيل المثال:

وهذه القصيدة طويلة بعض الشيء طبعت في كتاب صغير تسمى «هذه عقيدة العوام» طبع طباعة حجرية ضمن مجموعة أدبية من نظم ونثر حول المواليد النبوية الشريفة.. تقول القصيدة:

بسم الله الرحمن الرحيم

ابدأ باسم الدين والرحمن — وبالرحيم دائم الإحسان

فالحمد لله القديم الأوّل — الآخر الباقي بلا تحوّل

(١) حرب الجمل، ص ٤٠.

(٢) ص ص ١٤٧ «زبير بن العوام» ١٩٨٩ م.

ثم الصلاة والسّلام سرمدا ... على النبي خير من قد وحّدا
وآله وصحبه ومن تبع ... سبيل دين الحق غير مبتدع
وبعد فاعلم بوجوب المعرفة ... من واجب لله عشرين صفة
فالله موجود قديم باقي ... مخالف للخلف بالإطلاق
وقائم غني وواحد وحي ... قادر مريد عالم بكلّ شي
سميع نِ البصير والمتكلم ... له صفات سبعة تنتظم
فقدرةٌ إرادةٌ سمعٌ بصر ... حياةُ نِ العلمُ كلامُ نِ استمر
وجائز بفضله وعدله ... تركٌ لكلّ ممكن كفعله
أرسل أنبيا ذوي فطانه ... بالصدق والتبليغ والأمانه
وجائزٌ في حقّهم من عرض ... بغير نقصٍ كخفيف المرض
عصمتهم كسائر الملائكة ... واجبةٌ وفاضلوا ملائكة
والمستحيل ضد كلّ واجبِ ... فاحفظ لخمسين بحكمٍ واجبِ
تفصيل خمسةٍ وعشرين لزم ... كلّ مكلّفٍ فحقق واغتنم
هم آدمُ إدريسُ نوحٌ هو دمغ ... صالح وإبراهيم كلٌّ مُتَّبغ
لوط وإسماعيل إسحٰق كذا ... يعقوبُ يوسفُ وأيوب احتذا
شعيبُ هارون وموسى واليسغ ... ذو الكفل داود سليمان اتبغ
إلياس يونس زكريا يحيىٰ ... عيسى وطه خاتمٌ دع عبّا
عليهم الصلاة والسلامُ ... وآلهم ما دامتِ الأيامُ
والملك الذي بلا أبٍ وأمْ ... لا أكل ولا شرب ولا نومٌ لهم
تفصيلُ عشرٍ منهم جبرائيلُ ... ميكائيل إسرافيل عزرائيل
منكر ونكيرٌ ورقيبٌ وكذا ... عتيدُ مالكٌ ورضوانُ احتذا
أربعةٌ من كتب تفصيلها ... توراة موسىٰ بالهوى تنزلها
زبور داود وإنجيل على ... عيسى وفرقان على خير الملا
وصحف الخليل والكليم ... فيها كلام الحكم العليم

وكلّ ما أتى به الرسول فحقّه التسليم والقبول

إيمانـنا بيومٍ آخرٍ وجب وكلّ ما كان به من العجب

خاتمةٌ في ذكر باقي الواجب مما على مكلّف من واجب

نبيّنا محمدٌ قد أرسلا للعالمين رحمةً وفضلا

أبو عبدُ الله عبدُ المطلب وهاشمٌ عبدُ منافٍ ينتسب

وأمّه آمنة الزهرية أرضعته حليمةُ السعدية

مولده بمكة الأمينة وفاته بطيبةَ المدينة

أتم قبل الوحي أربعينا وعمرُه قد جاوز الستينا

وسبعةٌ أولاده فمنهمُ ثلاثةٌ من الذكور تُفهمُ

قاسم وعبد الله وهو الطيّبُ وطاهرٌ بِذَيْنِ يُلقبُ

أتاه إبراهيم من سريّة فأمّه مارية القبطية

وغير إبراهيم من خديجة هم ستة فخذ بهم وليجه

وأربع من الإناث تُذكرُ ورضوانُ ربي للجميع يُذكرُ

فاطمة الزهراء بعلها علي وابناهما السبطان فضلهم جلي

فزينب وبعدها رقيّةْ وأم كلثوم زكتْ رضيّةْ

عن تسع نسوة وفاة المصطفىٰ خُيِّرن فاخترن النبيّ المقتفىٰ

عائشة وحفصة وسوده صفية ميمونة ورمله

هندٌ وزينب كذا جويريه للمؤمنين أمهات مرضيه

حمزة عمّه وعباس كذا عمتّه صفية ذاتُ احتذا

وقبل هجرة النبي الأسرا من مكة ليلا القدس يُدِرا

...[1] إلى عروجُ للسما حتى رأى النبيّ ربًا كلّما

من غير كيفٍ وانحصار وافترضْ عليه خمسًا بعد خمسين فرضْ

---

(١) موضع الكلمة محزومة والكلمة مختفية بأكملها ما عدا ألف الممدودة في نهايتها همزة منفصلة ولربما تقديرها أبا العلياء والله أعلم. ولم نحصل على نسخة أخرى لإكمال النقص.

وبــلـع الأمــــة بــــالإســــراءِ وفـرضُ خـمـسـةٍ بـلا امـتـراءِ

قـد فـاز صـديـقٌ بـتـصـديـق لـهُ وبـالـعـروجِ الـصـدقِ وافـى أهـلهُ

وهــذه عــقــيــدة مــخــتــصــرهْ ولــلـعــوام ســهــلـةٌ مُـيّـسـرهْ

نـاظـم تـلـك أحـمـد الـمـرزوق من ينتمي للصادقِ المصدوقِ

والـحـمـد لله صـلـى وسـلّـمـا عـلـى الـنـبـي خـيــ ....[1]

والآل والصّحب وكلٍّ مرشدي وكـلٍّ مـن بـخـيـرِ هـديٍ يـقـتـدي

واسئل الكريم إخلاص العملْ ونفع كلّ من بها قد اشتغلْ

أبـيـاتُـهـا مَـيْـزٌ بِـقـدٌ الـجُـمـلْ تـاريـخـهـا حـيٌ غُـرٌ حُـمِـلْ

سـمـيـتـهـا عـقـيـدة الـعـوامِ من واجبٍ في الدين بالتمامِ

وصلى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

مكانة صفية لدى الشاعر حسان بن ثابت

وله - أي حسان ﷺ قصيدة - في الزبير بن العوام ﷺ[2] ويطلق عليه لقب حواري النبي ﷺ تشبيهًا له بحواري عيسى المسيح عليه السلام، يذكر فيها اسم السيدة صفية بالتبجيل والاحترام:

أقام على عـهـد الـنـبي وهـديـه حواريه والقول بالفعل يعدلُ

هو الفارس المشهور والبطل الذي يصول إذا ما كان يوم محجل

وإن امـرءًا كـانـت صـفـيـة أمـه ومن أسد في بيتها لمرفل[3]

لـه مـن رسـول الله قـربىٰ قـريـبـة ومن نصرة الإسلام مجد مؤثل

فـكـم كـربـة ذب الـزبـيـر بـسـيـفـه عن المصطفى والله يعطي فيجزل

---

(١) العبارة ناقصة بسبب التلف، ولربما تقديرها كما يبدو: خيرُ الأناما والله أعلم.. وليس بين يدي نسخة كاملة حتى أكمل النقص على ضوئها للأسف، فمعذرة.

(٢) هو الزبير بن العوام أحد العشرة المبشرين بالجنة وابن عمة رسول الله ﷺ وقد أفردنا له كتابًا مفصلًا باسم «سيرة الزبير بن العوام ودوره في الفتوحات العربية والإسلامية» ط بيروت ١٩٨٦.

(٣) مرفل: معظم.

فـمـا مـثـلـه فـيـهـم ولا كـان قـبـلـه   وليس يكون الدهر ما دام يذبل
ثـنـاؤك خـيـر مـن فـعـال مـعـاشـر   وفعلك يا ابن الهاشمية أفضل[1]

وسبب هذه القصيدة أن الزبير بن العوام ﷺ مرّ بقومٍ مجتمعين وحسان ينشدهم فلا يصغون إليه، فصاح بهم ويلكم، لقد كان ينشد رسول الله ﷺ فيستمع إليه، ويستزيده!! فأصغوا واستجابوا[2].

حَبْرُ الأمة ابن عباس يذكر عمتُه صفية

كان ابن عباس يمدح بابن الزبير ﷺ ويشيد بجدته صفية ﷺ . . .

عن ابن جريج: عن أبي مليكة قال: ذكر ابن الزبير عند ابن عباس ﷺ فقال:

«قارىء لكتاب الله. . . عفيف في الإسلام. . . أبوه الزبير ﷺ . . . وأمه أسماء، وجده أبو بكر. . . وعمته خديجة، وخالته عائشة. . . وجدته صفية ﷺ . . [وهي عمة ابن عباس ﷺ] والله إني لأحاسب له نفسي محاسبة لم أحاسب بها لأبي بكر وعمر»[3].

فضيلة زيارة قبر صفية ﷺ

ورد في رسالة «إرشاد الناسك إلى المناسك» للشيخ عبد الكريم المدرس بالحضرة الگيلانية في آداب زيارة القبور بالبقيع:

«ويستحب أن يخرج كل يوم إلى البقيع خصوصًا يوم الجمعة، ويكون ذلك بعد السلام على رسول الله ﷺ، وإذا انتهى إليها قال: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد، اللهم اغفر لنا ولهم. .

(١) يراجع ديوان حسان بن ثابت حرف اللام.
(٢) ص ٧٠ حسان بن ثابت الالتزام، د. علي شلق، بيروت، دار المدني، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٥ م.
(٣) راجع ج ٣ ص ٢٤٦ سير أعلام النبلاء شمس الدين الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ، بتحقيق الدكتور محمد أسعد طلس (سلسلة ذخائر العرب) «١٩» دار المعارف بمصر ١٩٦٢.

ويزور القبور الظاهرة فيه، كقبر إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وعثمان والعباس والحسن بن علي وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وغيرهم ﷺ . . ويختم بقبر صفية عمة رسول الله ﷺ.

وقد ثبت في فضل قبول البقيع وزيارتها أحاديث كثيرة»[1].

(١) راجع ص ١٢٩ - ١٣٠ من كتاب (إرشاد الناسك إلى المناسك) تأليف الشيخ عبد الكريم المدرس بالمصراة الكيلانية (القادرية)، بغداد، مطبعة الخنساء، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣ هـ ألف وأربعمائة وثلاث هجرية المصادف لعام ١٩٨٣ م ألف وتسعمائة وثلاث وثمانون ميلادية.

الخـــاتمـة

تم إكمال تأليف الكتاب الموسوم بـ «سيرة صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ» على يد مؤلفه الفقير إليه وخادم العلم والعلماء جميل بن إبراهيم بن حبيب بن عباس الزبيدي وذلك مع بدء أذان الفجر (صباحًا) في الساعة الخامسة إلا ربعًا ليوم الاثنين الموافق ٣، ربيع الثاني ١٤١٣ هـ المصادف ١٩ تشرين الأول ١٩٩٢ م ببغداد الذرىٰ، وله الحمد أولًا وآخرًا وأشهد أن لا إله غيره وأن محمدًا عبده ورسوله والصلاة والسلام عليه وعلى آله وصحبه بالأخص على زوجاته أمهات المؤمنين وعلى خلفائه الراشدين، ومن الله التوفيق.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٨٦].

بغداد المحروسة

ـ المؤلف ـ

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم ـ بكافة طبعاته المشهورة.

٢ ـ الصحاح الستة بمختلف الطبعات.

٣ ـ تاريخ الأمم والملوك للمؤرخ محمد بن جرير الطبري، القاهرة، مطبعة الاستقامة ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٩ م. وطبعة بيروت ١٩٧٠ م.

٤ ـ نسب قريش أبو عبد الله المصعب بن عبد الله الزبيري [١٥٦ ـ ٢٣٦ هـ] سلسلة ذخائر العرب رقم ١١ عني بنشره لأول مرة وتصحيحه والتعليق عليه إ. ليفي بروفنسال، الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٦ م.

٥ ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ للشيخ علي منصور، أحد علماء الأزهر، القاهرة ـ مصر.

٦ ـ الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ط ١ القاهرة تاريخ الطبع ١٩٦٠ م.

٧ ـ المعارف لابن قتيبة، القاهرة ـ مصر ١٩٣٥ م.

٨ ـ أشعار الترقيص عند العرب. . سعيد الديوجي، طبع وزارة الإرشاد، سلسلة الفنون الشعبية، الطبع بدون تاريخ.

٩ ـ السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول، بيروت ١٩٧١، ط ٣، ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٧ القاهرة ـ مطبعة حجازي.

١٠ ـ حرب الجمل للسيد محسن العاملي ط ١، دار الفكر للجميع، بيروت ١٩٦٩ م.

١١ ـ تاريخ اليعقوبي، بيروت، طبعة صادر بلا تاريخ.

١٢ ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من الزمان تأليف الإمام أبو محمد عبد الله بن أسعد اليافعي اليمني المكي بيروت ١٩٧٠ ط ٣، ج ١.

١٣ ـ مختار الصحاح للرازي ـ بيروت ـ ١٩٨١ م.
١٤ ـ المنجد في اللغة، المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٦٩ م.
١٥ ـ الإصابة في تمييز الصحابة تأليف أحمد بن علي بن محمد بن علي الكناني، مطبعة مصطفى محمد بمصر ١٣٥٨ هـ.
١٦ ـ سيرة الزبير بن العوام ومواقفه من معارك التحرير والفتوحات العربية والإسلامية، تأليف جميل إبراهيم حبيب، الدار العربية للموسوعات ببغداد وبيروت، طباعة بيروت ١٩٨٥ ط ١.
١٧ ـ القول الجازم في نسب بني هاشم، تأليف جميل إبراهيم حبيب، بغداد ـ دار التربية ١٩٨٠ م ـ الطبعة الأولىٰ.
١٨ ـ الاستيعاب في أسماء الصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله القرطبي المطبوع بهامش الإصابة بمصر ١٣٥٨ هـ.
١٩ ـ الأقباس النيرة في فضائل العشرة المبشرة بتقديم وإعداد جميل إبراهيم حبيب. المكتبة العالمية ببغداد ط ١ سنة ١٩٩٠ م.
٢٠ ـ مروج الذهب للمسعودي، القاهرة، ١٣٥٧ هـ.
٢١ ـ تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي ط ٢ ١٩٦٤، مصر القاهرة، مطبعة المدني. إضافة إلى طبعة دار الشرق ببغداد بالأوفسيت طبق الأصل.
٢٢ ـ ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربىٰ لمحب الدين الطبري بتقديم واعتناء جميل إبراهيم حبيب بغداد، دار القادسية للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٨٤ م.
٢٣ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد، طبع بيروت ١٩٥٧ م.
٢٤ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير، دار صادر، بيروت ١٩٦٥ م.
٢٥ ـ الحمزة بن عبد المطلب أسد رسول الله، تأليف جميل إبراهيم حبيب طبع ونشر الدار العربية للموسوعات بيروت ـ بغداد. الطبعة الأولى ١٩٨٦ م.
٢٦ ـ تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق سهيل زكار، دمشق، سلسلة إحياء التراث القديم تحت رقم (١٧).
٢٧ ـ العقد الفريد لابن عبد ربه، القاهرة، ١٩٢٨ م، طبع المطبعة الأزهرية، بالقاهرة، مصر.
٢٨ ـ أخبار والد الرسول ﷺ عبد الله بن عبد المطلب ط بيروت ١٩٨٤، نشر وتوزيع المكتبة العالمية ببغداد.

٢٩ ـ الروض الفائق للشيخ الحريفيش، القاهرة، بلا تاريخ، طبع المطبعة اليوسفية قرب الأزهر.
٣٠ ـ غاية السؤل في سيرة الرسول ﷺ تأليف الشيخ عبد الباسط الحنفي، طبعة الآستانة، سنة ١٣٢٨ هـ.
٣١ ـ تاريخ العرب قبل الإسلام، عبد الملك الأصمعي، ط، بغداد، ١٩٥٩ م، مطبعة المعارف.
٣٢ ـ السير والمغازي لابن إسحٰق تحقيق سهيل زكار، دمشق الطبعة الأولىٰ ١٩٧٨ م.
٣٣ ـ ديوان حسان بن ثابت، القاهرة، وطبعة بيروت.
٣٤ ـ التنبيه والإشراف للمسعودي ـ بيروت، دار الأندلس.
٣٥ ـ العباس ﷺ، صابر إبراهيم عبده، بغداد، دار النذير للطباعة والنشر، الطبع بلا تاريخ.
٣٦ ـ الدر المنثور، جلال الدين السيوطي، المطبعة الميمنية بمصر.
٣٧ ـ عقيل بن أبي طالب تأليف جميل إبراهيم حبيب، مخطوط ـ لم ينشر بعد.
٣٨ ـ تفسير القرطبي، القاهرة. . الطبعة الأولى.
٣٩ ـ سبائك الذهب في معرفة فضائل العرب للسويدي البغدادي، طبع، مصر، القاهرة، الطبعة الأولى.
٤٠ ـ بلوغ الأرب للألوسي، المطبعة الرحمانية، مصر، ١٩٢٥ م.
٤١ ـ أخبار أبي القاسم الزجاجي، بغداد، وزارة الأعلام، دار الرشيد للنشر ـ ١٩٨٠ م.
٤٢ ـ مجلة العربي، الكويت، العدد: (٢٨): ١٩٦٥ م.
٤٣ ـ الروض الآنف للسهيلي، مصر، القاهرة.
٤٤ ـ نزهة المجالس ومنتخب العرائس للشيخ عبد الرحمٰن الصفوري الشافعي، الجزء الأول، القاهرة.
٤٥ ـ نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي، طبع في القاهرة، سنة ١٩٥٩ م.
٤٦ ـ الزاهر، أبي بكر الأنباري ج ٢ تحقيق د. حاتم الضامن ١٩٧٩ ـ بغداد. الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد.

٤٧ ـ المقصور والمحدود للقالي، مصر، القاهرة.
٤٨ ـ «كنتم خير أمة» للأستاذ خير الله طلفاح، بغداد دار الحرية ١٩٨٣ م.
٤٩ ـ معجم البلدان لياقوت الحموي، طبعة بيروت.
٥٠ ـ السيرة النبوية الشريفة، نور الدين الكناني، إصدار مكتبة النهضة بغداد، ١٩٩٠ م.
٥١ ـ الأنوار في مولد النبي ﷺ، لأبي الحسن عبد الله البكري، منشورات المطبعة الحيدرية العراق، النجف الأشرف، بلا تاريخ.
٥٢ ـ مجمل تاريخ الأمة العربية، خليل أحمد حلو، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٤٢، مكتبة العثمان/ الأعظمية.
٥٣ ـ الزهرة (النصف الثاني) تأليف أبي بكر بن داود الأصفهاني، تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي والدكتور نوري حمودي القيسي، العراق. بغداد. وزارة الثقافة والإعلام ط ١ (١٩٧٥).
٥٤ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين بن الأثير، الطبعة الأولى، مصر، القاهرة.
٥٥ ـ عقيدة العوام تأليف أحمد المرزوق [مطبوع ضمن قصائد في المدح النبوي]، لابن حجر، والبرزنجي بالقاهرة بلا تاريخ.
٥٦ ـ سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت ٧٤٨ هـ، طبع القاهرة ١٩٦٢.
٥٧ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان ـ بيروت ١٩٦٨ ـ ١٩٧٢.
٥٨ ـ إرشاد الناسك إلى المناسك للشيخ عبد الكريم المدرّس بالحضرة الگيلانية، الطبعة الأولى، ١٩٨٣ م، مطبعة الخنساء، بغداد. ومصادر ومراجع أخرىٰ...
٥٩ ـ حسان بن ثابت، الالتزام د. علي شلق، بيروت ١٩٨٥ م.
٦٠ ـ الأعلام للزركلي ط ١.
٦١ ـ أعلام النساء، محمد رضا كحالة، بيروت.

فهرس المحتويات